

تذكر ضحايا إبادة الأرمن ، الأموات منهم والأحياء

ترجمة : سحر توفيق

بقلم : رافى بدروسيان

خلال سرد الحجج التى يسوقها الأتراك ، والحجج الأرمنية والدولية المقابلة عن عدد الأرمن الذين تعرضوا للإبادة فى عام ١٩١٥ ، ظل هرانت دينك يُذكِّر الجانبين مراراً وتكراراً بما هو أكثر أهمية : «إننا نستمر فى الحديث حول القتلى الذين ذهبوا ، دعونا نبدأ بالكلام حول الأحياء الباقين . . . » إن الأحياء الباقين هم العدد غير المعروف من الأرمن الذين ظلوا فى الأناضول ، ليس كأرمن ، ولكن كأتراك وأكراد وعلويين ، ومسلمين وهويات أخرى . بعد ثمانية وتسعين عاماً من محاولة تدمير أمة ، حان الوقت للحديث حول الأرمن المخفيين ، وأغلبهم يتامى عام ١٩١٥ الذين استوعبوا فى هويات غير هويتهم الأرمنية .

كانت لدى هرانت الشجاعة للكشف عن الهوية الحقيقية لإحدى البطلات التركيات المعروفات جيداً باعتبارها إحدى يتامى الأرمن . هذه الشخصية هى صبيحة جوكشن ، أول طيارة حربية انثى ، والتى تبناها أتاتورك ، كانت فى الحقيقة هى خاتون سيبيلچيان ، فتاة أرمنية فقدت والديها وأهلها فى بروسه عام ١٩١٥ . كان هذا الكشف هو بداية النهاية بالنسبة لهرانت ، فقد أثار حملة هائلة من الكراهية والتهديد من جانب الحكومة والعسكر ووسائل الإعلام أدت إلى اغتياله بعد ثلاث سنوات . ولكن سيبيلچيان / چوكشن كانت واحدة فقط من عشرات الآلاف من الأطفال الأرمن الذين انتُزعوا من آبائهم وأمهاتهم أثناء أحداث ١٩١٥ . فماذا حدث لهؤلاء اليتامى ؟ كم كان عددهم ؟ هذا المقال يذكر بعض الأمثلة من أجزاء مختلفة من الأناضول .

هناك حقيقة موثقة بالأدلة أنه أثناء ترحيل السكان الأرمن من كل أركان الأناضول إلى الصحراء السورية ، وإذ كانت القوافل تقترب من مدنهم أو قراهم ، كان السكان المحليون من الأتراك والأكراد يخطفون الأطفال الأرمن من آبائهم ليأخذوهم إلى بيوتهم كخدم أو زوجات . وقد قام هؤلاء أو عساكر الدرك المرافقون للقوافل ببيع كثير من الأطفال كالعبيد . وهناك قليل من الأطفال قام آباؤهم بإيداعهم لدى جيرانهم الأجراد أو الأتراك قبل أن يبدأوا مسيرة الترحيل . وقد قامت الإرساليات الأمريكية والأوربية أو رجال الدين الكبار من اليونانيين البنطسيين بإنقاذ بعض الأطفال فى البداية ، لكن من الثابت أن هؤلاء أيضاً قُبض عليهم فيما بعد وأُبعدوا أو قُتلوا . ويمكن أن نذكر واحدة من بين أحداث مأساوية كثيرة موثقة فى طرابيزون ، حيث أُخذ ٦٠٠ من الأطفال الأرمن اليتامى إلى دير يونانى بإذن الحكومة بعد أن قُتل آباؤهم بإغراقهم فى البحر الأسود . ولكن بعد ثلاثة أشهر ، بأمر من حاكم طرابيزون جمال

كاتب أرمنى
مقيم فى تورنتو بكندا

عزمى ، قامت قوات الشرطة بإجلاء اليتامى قسراً من الدير وسلّمتهم إلى قبطان مركب تركى ، هو رحمن بيرقدار أوغلو ، الذى وضع كل طفل فى جوال دقيق ، وأغلق الجوال جيداً ، وألقى بهم فى البحر الأسود . ومن الموثق أن الحاكم جمال قال فيما بعد مازحاً : «حصاد الأسماك سوف يكون وفيراً هذا الموسم بعد كل هذا الغذاء من الغرقى» .

اختار جمال عزمى ، حاكم طرابيزون ، حوالى ٤٥٠ من أجمل بنات الأرمن فى طرابيزون ، وحوّل مستشفى الهلال الأحمر المحلى إلى بيت دعارة للنخبة التركية والوجهاء الزائرين للمدينة ، بل وأرسل بعض البنات هدايا إلى رؤسائه فى إسطنبول . كان مدد اليتامى يُستكمل قدر الحاجة . وقد احتفظ بحوالى ١٥ فتاة أرمنية لنفسه ولكنه أهدى واحدة لابنه أكمل البالغ ١٤ عاماً . وقد أُجبرت معظم الفتيات على التحول إلى الإسلام ؛ وقليلات استطعن الهرب فيما بعد ، أو انتحرن . وقد ظهرت هذه الأحداث فى شهادات الشهود أثناء محاكمات قادة الاتحاد والترقى بعد الحرب . ولكن أيضاً رواها ابن جمال عزمى نفسه فى عام ١٩٢١ لأقرب أصدقائه ، والذى كان يعرفه بإسم محمد على . ولكن هذا الصديق كان أرمنياً اسمه هراتش پاپازيان ، وكان متخفياً ، بل وكان مختوناً كمسلم ، والذى نجح فى اختراق دوائر الاتحاد والترقى فى برلين ، استعداداً لاغتيال الزعماء الأتراك كجزء من «عملية نمسيس» (الانتقام) (جمال عزمى وبهاء الدين شاكر ، زعيم التشكيلات المخصوصة ، والذى كان المنظم الرئيسى لمذابح الترحيل ، واغتيل كلاهما فى برلين فى ١٧ أبريل ١٩٢٢ ، مباشرة أمام أرملة طلعت باشا الحائرة ، بعد سنة من تنفيذ العدالة فى طلعت نفسه) .

كان لدى حكومة الاتحاد والترقى خطط خاصة للناجين من اليتامى . وبينما كانت الحرب العالمية تدور رحاها ، وفى عملية منظمة ، تم جمع معظم اليتامى الناجين ، وأُرسلوا إلى ملاجئ أيتام أُقيمت فى مواقع متعددة بهدف تحويلهم إلى الإسلام وصهرهم فى الهوية التركية . كان أحد هذه الملاجئ فى عين طورا ، بالقرب من زوق على بعد ساعة بالسيارة من بيروت ، حيث وُضع ألف يتيم أرمنى تتراوح أعمارهم بين ٣ سنوات إلى ١٥ سنة . وبأمر من جمال باشا ، حاكم سورية ولبنان ، وتحت إشراف المدرسين والمثقفين الأتراك ، ومن ضمنهم الناظرة الجديدة الأديبة التركية خالدة أديب أديوار ، تم تحويل هؤلاء الأطفال إلى الإسلام وتتريكهم . وتم ختان الذكور ، وتسميتهم بأسماء تركية ، ولكن مع الاحتفاظ بالحروف الأولى من أسمائهم الأولى وأسماء عائلاتهم الأرمنية . ومن ثم ، فإن هاروتيون نچاريان ، أصبح اسمه حامد نظيم ، وبوغوص ميردانيان أصبح اسمه بكيم محمد ، وسركيس سارافيان ، أصبح صافت سليمان . وتم تحويل الملجأ من مدرسة مسيحية إلى إسلامية ، بعد طرد الكهنة الكاثوليك اللازاريين . وبينما سادت المجاعة فى كل مكان من لبنان وسورية أثناء الحرب ، تم إمداد الملجأ بطعام وفير ، بهدف تربية أطفال أصحاء وحاصلين على تغذية جيدة من بين هؤلاء الذين تم تتريكهم حديثاً . وعلى أساس مذكرات أحد اليتامى ، هاروتيون ألبوياچيان ، كان مطلوباً من الأطفال أن يتحدثوا التركية فقط ؛ فإذا سمع المشرفون أى حديث بالأرمنية ، يتلقى الأطفال ضرباً مبرحاً . وتم إلباسهم زى الأطفال الأتراك ، وتلقوا التعاليم الإسلامية . وكان جمال باشا يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الأرمن أكثر تفوقاً فى القدرات الفكرية والكفاءة ، الأمر الذى سوف يُساعد الأمة التركية كثيراً . ورغم جهود الحفاظ على الصحة فى الملجأ ، فقد مات حوالى ٣٠٠ طفل

أرمنى من الجذام وأمراض أخرى حتى عام ١٩١٨ . وُوضع بعض اليتامى مع عائلات فى المدن التى لم يبق فيها أى أرمن ، ووُزع بعضهم على ملاجئ أخرى . وبنهاية الحرب ، عندما تولت هيئة معونة الشرق الأدنى الإشراف على الملجأ ، كان هناك ٦٧٠ من اليتامى ، ٤٧٠ ولداً ، ٢٠٠ بنتاً ، والذين كانوا لايزالون يذكرون أسماءهم الأرمنية .

وفى شرق الأناضول يُوجد مثال آخر لتجربة التتريك ، والتى طُبقت بنجاح على يدىّ قائد الجبهة الشرقية ، كاظم قره بكير . قدّر كاظم أن هناك حوالى ٥٠,٠٠٠ من اليتامى اليائسين بعد الحرب فى منطقة العمليات التى كان مسئولاً عنها . ومن الثابت وثائقياً أن ٣٠,٠٠٠ من هؤلاء خضعوا للختان والتتريك . وقد جمع ٦,٠٠٠ طفل فى أرضروم ، ٢,٠٠٠ من البنات ، ٤,٠٠٠ من البنين ، ووضعهم فى معسكر للجيش . وتلقى بعضهم تدريباً مماثلاً للمدارس العسكرية ، وتلقى آخرون تعليماً لحرف أساسية لمهمات الجيش مثل الخياطة وصناعة الأحذية ذات الساق . وقد أصبح هؤلاء اليتامى أتراكاً بالكامل ، وأُطلق عليهم «جيش الأطفال الأصحاء» . وفيما بعد أرسل الموهوبون من بين هؤلاء الأولاد إلى الأكاديميات العسكرية العليا فى بروسه وإسطنبول . وبدون الخوض فى سيكولوجية الصهر وتغيير الديانة ، هناك زعم بأن هؤلاء الضباط المتحولين إلى الإسلام أصبحوا من أشد رجال الجيش التركى تعصباً للقومية ، وأن بعضهم ساهم فى انقلاب مايو ١٩٦٠ العسكرى الذى أطاح بحكومة عدنان مندريس المدنية .

وفضلاً عن الملاجئ أصبح عشرات الآلاف من البنات والصبية الصغار عبيداً بعد عام ١٩١٥ ، يُباعون ويُشترون فى الأسواق وأماكن البيع . ورغم أن الرق قد أُلغى رسمياً فى الإمبراطورية العثمانية فى عام ١٩٠٩ ، فقد أعيد فتح أسواق الرقيق بعد عام ١٩١٥ بغرض المتاجرة فى النساء والأطفال الأرمن . وأصبح خطف الأطفال الأرمن من قوافل الترحيل ليس فقط يمد الأتراك والأكراد بالخدم والعمالة المجانية أو الخدمة الجنسية فى بيوتهم ، ولكن أيضاً أصبح هؤلاء الأطفال بضاعة قابلة للتسويق يُمكن بيعهم للتربح فى تلك الأسواق . وقد نُصبت الأسواق فى حلب وديار بكر والجزيرة والرها وماردين . وقد قيل أن الأسعار فى ماردين كانت أقلها ؛ إذ بعد وشمهم كرقيق ، كان الأطفال الأرمن من ٥ ـ ٧ سنوات يُباعون مقابل ٢٠ سنتاً ، وهو يُماثل سعر حمل . وبيع البنات أو الأولاد من سن ١٤ ـ ١٥ مقابل ٥٠ سنتاً ، بينما كانت المرأة المسيحية البالغة تساوى حوالى ليرة تركية واحدة . ولكن إذا كان الرقيق قادماً من عائلة ثرية معروفة جيداً، كان السعر يرتفع كثيراً ، حيث أن امتلاك مثل هذا الرقيق قد يُؤدى فيما بعد إلى المطالبة بثروة عائلته . وهناك العديد من الحالات الموثقة من عصر الجمهورية التركية فيما بعد عندما حاولت عائلات تركية وكردية تقنين ملكية العديد من الممتلكات العقارية ، التى كانت من قبل ملكاً لـ «زوجاتهم» أو «بناتهم» .

هناك أيضاً حالات موثقة قام فيها بعض ذوى القلوب الطيبة من الكهنة السريانيين ، أو المبشرين الأوربيين أو الأمريكيين ، بشراء العديد من الأطفال الأرمن من تلك الأسواق ، بهدف إنقاذهم . اشترى الأسقف السريانى تاپونى من ماردين حوالى ٢,٠٠٠ طفل أرمنى عام ١٩١٦ ، وأنقذهم . وبينما كان بعض المسلمين يُعاملون العبيد الأرمن معاملة إنسانية ، كان معظم أسيادهم يضربونهم بوحشية ، حيث كانوا يعتقدون أن «المسيحيين لا يستحقون إلا الضرب» . وانتهى الأمر بالنساء والبنات أن أصبحت معظمهن «زوجة ثانية» لمالكها المسلم ، وتلقت معاملة سيئة ليس فقط من الزوج ، ولكن أيضاً من الزوجة الأخرى

لزوجها . ولكن فى النهاية ، ذابت هذه النساء داخل بيوت المسلمين ، حملن الأطفال ، وتعلمن القرآن ، وأدين الصلاة بتقوى كنساء مسلمات .

ووفقاً لتقرير أصدرته بعد الحرب لجنة إنقاذ النساء والأطفال الأرمن التابعة لعصبة الأمم ، هناك على الأقل ٣٠,٠٠٠ طفلة أرمنية بيعت فى الأسواق لضمهن إلى الحريم ، أو لاستخدامهن فى عمالة الرقيق . وهناك قصص موثقة لـ ٢,٠٠٠ من البنات والأولاد والشابات الأرمن ، الذين أُنقذوا من البيوت التركية والكردية بعد الحرب ، وهذه القصص محفوظة فى أرشيف عصبة الأمم فى چنيڤ . وكان إنقاذ اليتامى الأرمن أحد المهام الأولى لعصبة الأمم . وبعد مناشدات البطريرك الأرمنى فى إسطنبول ، نظّمت القوات المتحالفة وممثلو عصبة الأمم نقل معظم اليتامى الأرمن من الأناضول وسورية إلى إسطنبول ، وبدأوا البحث عن اليتامى الأرمن فى بيوت المسلمين . وحيث لم يكن هناك مكان يضعون فيه كل اليتامى فى الملاجئ الموجودة فى اسطنبول ، استُخدمت مدارس عديدة لإيواء الأطفال الأرمن ، ومن ضمنها مدرسة نوتردام صهيون Notre Dame de Sion ، وسانت چوزيف St. Joseph ، والمدرسة الإيطالية ، والدير الروسى ، والأكاديمية العسكرية التركية ، كوليلى Kuleli .

وحيث كان لبعض اليتامى أسماء تركية بالفعل ، فقد بدأت مناقشات حامية بين البطريركية الأرمنية والسلطات الحكومية حول الهوية الحقيقية للأطفال . والواقع أن بعض اليتامى كانوا قد نُقلوا بالفعل إلى بيوت تركية فى إسطنبول كخدم ؛ ومن بينهم ٥٠ يتيماً أُرسلوا إلى مزرعة زعيم الاتحاد والترقى ، أنور باشا . وأثناء سنوات الحرب ، تم وضع الأطفال فى حالة من التكيف والتخويف من التحدث باللغة الأرمنية ، أو من كشف هوياتهم الأرمنية .

وتُبين الوثائق أنه فى الفترة بين عامىّ ١٩٢٠ و١٩٢٢ ، كان هناك حوالى ٣,٨٠٠ من الأطفال الأرمن الذين أُحضروا إلى إسطنبول ، و ٣,٠٠٠ أُرسلوا إلى قبرص ، و ١٥,٦٠٠ أُخذوا إلى اليونان ، و ١٢,٠٠٠ نُقلوا إلى سورية من مرعش والرها وعنتاب ومالطية وخربوط . ومن المثير للاهتمام ، أن سجلات البطريركية الأرمنية بإسطنبول تُشير إلى ما لا يقل عن ٦٣,٠٠٠ يتيم أرمنى «لم يُنقذوا» فى البيوت التركية والكردية .

وفى السنوات الأخيرة ، صرّح الباحثون فى الإبادة أن مرتكبيها لم يهدفوا فقط إلى تدمير الجماعة المقموعة ، ولكن أيضاً إلى إنشاء جماعة من القامعين . وتُبين أحداث عام ١٩١٥ وعواقبها بوضوح أن اليتامى الأرمن أصبحوا مصدر دعم لخلق الأمة التركية بإثراء وعائها الچينى . وهناك الآن عشرات الآلاف من العائلات التركية والكردية ينحدرون من جدة أرمنية مخفية . ومن اللافت للنظر أنه حتى بعد تسع وثمانين عاماً من محاولات التتريك القسرية ، والصهر وتغيير الديانة ، هناك ما يدل على هويات أرمنية خفية فى مختلف الأماكن بالأناضول تبدأ فى الظهور . وهناك مصطلح تصويرى بدرجة ما يُحدد هؤلاء الناس فى تركيا ، هو «بقايا السيف» (Kilig Artighi) .

وفى كتاب لفتحية تشتين ، محامية هرانت دينك ، والذى صدر تحت عنوان «جدتى» ، والكتاب التالى «الأحفاد» ، والذى كتبته بالاشتراك مع أيسيجول ألتيناى Aysegul Altinay ، وفى الكثير من الكتب الأخرى والوثائق والأفلام التى ظهرت فى السنوات الأخيرة ، والتى تصف وجود وظهور الأرمن المستترين فى تركيا ، وهى الحقائق التى حُملت من جيل إلى التالى ، والتى صدرت كلها عن يتامى الأرمن لعام ١٩١٥ .

ومن الصعب للغاية ، بالطبع ، تقدير عدد الأرمن المستترين فى تركيا اليوم . ويُمكن للمرء أن يفترض أن عددهم ربما يصل إلى ١٠٠,٠٠٠ يتيم أرمنى نجوا ولكن تم تتريكهم ، وتغيير ديانتهم ، وصهرهم . ويُقدِّر الباحثون أن حوالى ٢٠٠,٠٠٠ آخرين من الأرمن البالغين تجنبوا الترحيل فى مختلف قرى الأناضول بالتحول إلى الإسلام . ولهذا ، فمن الممكن تصور أن ٣٠٠,٠٠٠ من الأرمن استطاعوا النجاة من أحداث ١٩١٥ . وقد زاد سكان تركيا سبعة أضعاف منذ ذلك الحين . وباستخدام نفس المعدّل ، يُمكن أن نُقدِّر ، استقرائياً ، أنه ربما كان هناك ٢ مليون نسمة من أصل أرمنى فى تركيا اليوم .

وأود أن أشارك بإحدى تجاربى الشخصية مع أرمنى مستتر ، وإن كان بشكل غير مباشر . عندما كنتُ فى أرمينية عام ١٩٩٥ كمهندس متطوع للتفتيش على مشروعات البناء المموّلة من صندوق أرمينية لكل الأرمن ، زرتُ أيضاً مدينة إسبيداج ، حيث كان يُعاد بناء الكنيسة التى دُمرت فى زلزال عام ١٩٨٩ . ونما إلى علمى أن التمويل جاء من تركيا من مانح سرى ، كما حُدِّد فى وصية جدة عائلة تركية بالغة الثراء ، والتى لم تكشف عن جذورها الأرمنية إلا وهى على فراش الموت . وفى السنوات الأخيرة ، وخاصة بعد إعادة بناء كنيسة القديس چيراجوس الأرمنية فى ديار بكر ، كان هناك بعث جديد للأرمن المستترين فى الكشف عن هوياتهم . ومن المأمول أن ترى الحكومة التركية هذا كنتيجة إيجابية للخطوات الأخيرة من التحول إلى الليبرالية ، وليس كتهديد ، وفى النهاية أن تجد الشجاعة لمواجهة ماضيها .

أرمينية والكويت

فى ٣١ مايو التقى وزير الخارجية الأرمنى إدوارد نالبانديان برئيس مجلس الأمة الكويتى على فهد الرشيد الذى كان فى زيارة رسمية إلى أرمينية . وقد أشاد الوزير نالبانديان بزيارة وزير مجلس الأمة الكويتى إلى أرمينية ، ونوّه إلى التعاون القائم بين برلمانيَّ الدولتين ، وأكد أن مثل هذه الزيارات تُساهم بقسط كبير فى تنمية العلاقات الثنائية . وأضاف وزير الخارجية الأرمنى أنه يتذكر بحميمية الزيارة الرسمية التى قام بها إلى الكويت فى نهاية العام الماضى والتى تم تحقيق ما جاء فى الاتفاقات التى أُبرمت فى حينها . وقد أكد رئيس مجلس الأمة الكويتى بدوره أن اللقاءات التى عقدها فى أرمينية كانت ثرية فى محتواها . وأعرب عن مساندة الهيئة التشريعية للأنشطة الرامية إلى توسيع العلاقات الثنائية بين حكومتىّ الدولتين . وقد سجّل الجانبان أنه بعد افتتاح سفارات فى كل من الكويت ويريڤان ، اكتسبت العلاقات بين البلدين مضموناً جديداً . تعرَّض رئيس مجلس الأمة الكويتى ووزير الخارجية الأرمنى للخطوات الواجب اتخاذها لتقوية العلاقات فى المجالات السياسية والاقتصادية والإنسانية . وخلال اللقاء أيضاً ، تم تبادل الآراء بالنسبة لحل الأزمة السورية والجهود المبذولة بشأنها . وفى هذا الإطار ، شكر الوزير نالبانديان المعونة التى قدمتها السلطات الكويتية إلى الأرمن السوريين الموجودين فى أرمينية .

مالكــوم خـــان

أ.د. آمــال السبــكى

خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ازدهر المجتمع الأرمنى فى إيران بفضل الروابط التجارية مع التجار الأرمن فى روسيا . وصدرت أول دورية أرمنية هناك ، وكتاب عن تاريخ الأرمن فى چولفا الجديدة عام ١٨٨٠ . وفتح التجار الأرمن بيوتاً تجارية فى مناطق قزوين والخليج العربى ، وتاجروا مع روسيا والهند وأوربا . وأحضر العاهل الفارسى نصر الدين شاه (١٨٤٨ ـ ١٨٩٦) الأرمن إلى طهران حيث استخدمهم مستفيداً بقدراتهم اللغوية واتصالاتهم الأجنبية بمثابة رسل إلى أوربا . وكان بعضهم مثل ميرزاً مالكوم خان وديڤيد خان ميليك شاهنزار وهوڤهانيس خان مسيحيان مسئولين عن جلب الأفكار البنائية المتحررة والفكر السياسى الغربى والمخترعات التكنولوچية إلى إيران . ونقل الترزية والجواهرجية الأرمن «الموضة» الأوربية . وكان الأرمن فى طليعة المصوِّرين الفوتوغرافيين بإيران ، كما كانوا أيضاً فى طليعة الفنانين السينمائيين والموسيقيين هناك . وفى نهاية القرن التاسع عشر ، كان هناك حوالى «١٠٠» ألف أرمنى يعيشون فى «١٢» مدينة فى إيران . ولذا ، يُسعد «أريك» أن تُقدم فى هذا العدد إسهام الأرمنى مالكوم خان فى الحياة السياسية الإيرانية ودوره فى تهيئة المجتمع الفارسى لإحداث الثورة الدستورية (١٩٠٦) .

زاد من وطأة الإحساس بخطر النفوذ الأجنبى فى فارس وجود نخبة مثقفة جديدة أفرزتها إصلاحات ناصر الدين شاه ومظفر الدين شاه من بعده . تلك النخبة التى أفرزتها المدارس والمعاهد والمكتبات والبعثات التى كوّنت إنتلجينسيا إيرانية تأثرت بما قرأته من مؤلفات تقدمية غربية قام بترجمتها مكتب الترجمة بطهران ، وكذا الدارسون العائدون من البعثات العلمية بالخارج ، بعد أن أسندت لهم الحكومة مهمة التدريس فى المدارس العليا ومسئولية الكتابة فى الصحافة أو الذين تم تعيينهم كموظفين حكوميين جدد أو مهنيين فنيين أو ضباط جيش وبوليس مدربين . وأصبحت الإنتلجينسيا الجديدة عصب الطبقة الوسطى الإيرانية ، ذات الطموحات الخاصة بها والمتطلعة للسلطة والنفوذ والقوة ، لكنها سرعان ما اصطدمت بالبلاط الشاهنشاهى والسلطة الحاكمة .

هذا التصادم المصلحى لم يخرج دفعة واحدة ، وإنما وجهته كتابات تُعبر عنه وتُنبه الأذهان لقضايا التنوير والديمقراطية ، وظهرت نغمة تدعو إلى مشاركة المثقفين فى صنع التقدم الإنسانى لوطنهم ، طبقاً لمفاهيم الثورتين الفرنسية والأمريكية دون الإعلان عن فكرة

الثورة أو الإطاحة بالسلطة القاچارية . وإنما دعت فى دعة وهدوء لضرورة تحسين الأوضاع وتغيير العلاقات بين السلطة والمجتمع ، والحد من النفوذ الأجنبى وإبعاد الأوربيين عن نهب ثروات البلاد .

وقد تبنى تلك الأفكار جيل من المثقفين الأوائل أمثال أحمد كسروى تبريزى والشيخ محمد طباطبائى وآية الله بهبهانى وغيرهم من طائفة رجال الدين المتنوِّرين . وعلى المستوى المدنى برز ميرزامالكوم خان أحد رموز التحديث وصديق جمال الدين الأفغانى ، وهو أحد خريجى مدرسة دار الفنون حيث التحق بفرنسا بعد ذلك لدراسة الهندسة ، وهناك تأثر بالماسونية والفلسفة السان سيمونية ، وبعد عودته إلى طهران قام بالتدريس فى المدرسة نفسها التى تخرج فيها (دار الفنون) ، ثم التحق ليعمل فى البلاط الشاهنشاهى ، بعد أن تحول من المسيحية إلى الإسلام . وفى التسعينيات من القرن التاسع عشر أسس جمعية سرية عُرفت بجمعية «السلوان» على طراز المحافل الماسونية . ثم ألّف كتابه الشهير «كتاب الإصلاح» الذى قدّمه لناصر الدين شاه ليهتدى به فى إعادة بناء إيران . وركز فيه على مبدأ العدالة الاجتماعية ورفع مستوى معيشة السكان . والكتاب يُعد الركيزة الأساسية التى اعتمدت عليها قيادات الثورة الدستورية (١٩٠٦) ، حيث وضع مالكوم خان فى كتاب الإصلاح خطوات تنفيذية تبدأ بإنشاء مجلس تشريعى ، وهيئة تنفيذية يُعينهما الشاه بعد موافقة الرأى العام الإيرانى ، كما حض على جمع قوانين الدولة القديمة والحديثة فى دستور واحد يُمكن الرجوع إليه . وطلب إنشاء وزارة لجمع الضرائب من القادرين للإنفاق على الاصلاحات ، وأكد أهمية إنشاء جيش إيرانى محترف ، وتأسيس بنك للدولة ، ودعا إلى وضع خطة تعليمية شاملة للأمة الإيرانية ، كما دعا إلى ضرورة ربط الأقاليم الإيرانية كل منها بالآخر من خلال سلسلة طرق معبّدة لتدعيم التواصل بين السكان وتشجيع التجارة والترحال .

بالطبع لاقت آراء مالكوم فى البداية معارضة شديدة من المؤسسات الدينية الإيرانية ، برغم اعتناقه الإسلام ، نظراً لاتهامه بالماسونية فاضطر الشاه لنفيه للدولة العثمانية وإغلاق جمعية «السلوان» على الفور . فألّف بالمنفى كتابه النقدى «حكاية مسافر» ، الذى تناول فيه العديد من مساوئ الحكم القاچارى ، وركز على مساوئ البلاط ورجاله ، ثم هاجم رجال الدين واتهمهم بإشعال الفرقة الطائفية ، واستغلال مال المؤمنين . واعتبره المثقفون الإيرانيون أول كتاب أدبى بالنثر الفارسى السهل المتحرر من صعوبات الأسلوب التقليدى المنمق ، يُهاجم ويُفند مساوئ الحكم القاچارى .

ثم التقى مالكوم فى المنفى بسفير إيران فى إسطنبول حسين خان ، أحد رموز الفكر الليبرالى فى إيران ، وقد أدت صداقة الرجلين إلى عودة مالكوم من المنفى إلى القاهرة ليعمل قنصلاً للشاه فى مصر ، ولمدة عام . ثم عيّنه الشاه مستشاراً سياسياً له فى وزارة حسين خان الذى أصبح بدوره رئيساً للوزراء . لكن الصديقين المسئولين وافقا على الامتياز الذى منحه الشاه للبارون رويتر مما أثار حفيظة وغضب رجال الدين للمرة الثانية على الشاه ومعاونيه . وأُكره الشاه فى النهاية على إلغاء الامتياز المذكور ، وعزل كبير الوزراء حسين خان وعين مالكوم سفيراً لطهران فى لندن .

كان من نتائج سفر مالكوم إلى لندن أن بدأت مرحلة جديدة لنشاط الإنتلجينسيا الإيرانية المعادية للبلاط الشاهنشاهى . حيث بدأت اتصالات الرجل بجمال الدين الأفغانى ، كما أرسل العديد من المؤلفات الغربية الجديدة لمثقفى إيران وبعث لهم ترجمات عن أوضاع

إيـران فى أعـين الـغـرب الأوربى مما أثار حـنق الـشـاه عليه، فعزله على الفور من منصبه ، ليتخذ مالكوم من لنـدن مستـقـراً له . وبدأ فى خلق علاقات جديدة مع رجال الدين الإيرانيين بجانب المثقفين حتى أصبحوا جبهة قوية ضد الشاه . ثم ألقى محاضرة عن الحضارة الفارسية عبّر فيها عن مطالبه هو ومثقفى وطنه من الحكومة القاجارية آنذاك .

وقد أشار فى محاضرته بلندن إلى حاجة الأمة الإيرانية الماسة إلى وجود قانون يحمى الملكية الفردية والحرية الإنسانية ويُوفر الأمن للمواطن ، وأدان الاستبداد السياسى واعتبره المسئول عن تخلف إيران وعزلتها الثقافية . كما أعلن بصراحة كاملة أن هدفه الأساسى جعل الفلسفة السياسية الغربية مقبولة من الرأى العام الإيرانى بإلباسها أسانيد من القرآن والحديث واجتهادات أئمة الشيعة ، لكى يضمن موافقة رجال الدين عليها ، ومساندته فى تطبيقها داخل إيران .

واستكمل مالكوم سياسته فى التعبير وإقامة جسور قوية مع المثقفين ورجال الدين فى إيران عندما أسس جريدة «القانون» عام ١٨٩٠ والتى استمرت ثمانية أعوام متصلة ، وخرج منها للنور أربعون عدداً حيث جعل شعارها (الوحدة ـ العدالة ـ التقدم) وزين واجهتها بفاتحة القرآن الكريم . وقد ظل محور أهدافها تأهيل رجال الدين لمقاومة الخلافات الدينية والطائفية بغية الوصول إلى الوحدة الإنسانية ، وتوجيه الطاقات للإنتاج المحلى والدعوة للتخلص من النفوذ الأجنبى بدعم البناء والتطوير والإصلاح فى إيران .

ثم ناشد الملك ناصر الدين شاه علناً أن يُنشئ «جمعية استشارية» تُوكل إليها مسئولية صياغة القوانين التى تُطلق التقدم الاجتماعى على أقل تقدير . وعلى الرغم من الجهود التنويرية لمالكوم ، فإنه لم يُشارك بطريقة مباشرة فى الثورة الدستورية ، حيث وافته المنية فى لندن عام ١٩٠٨ بعد اندلاع الحرب الأهلية فى إيران . وإن بقيت أفكاره رائدة لقيادات الثورة الدستورية طوال نضالها .

أرمينية والإمارات

فى أول مايو ٢٠١٣ ، اشترك الوفد الرسمى لأرمينية ، وكذلك عشر شركات أرمنية خاصة فى ملتقى الاستثمار السنوى الثالث فى دبى (دبى ٢٠١٣) . هذا ، وقد التقى رئيس الوفد الرسمى لأرمينية السيد ديكران هاروتيونيان مع نائب وزير الاقتصاد والإماراتى السيد سلطان بن سعيد المنصورى . وخلال اللقاء ، بحث الطرفان المسائل المتصلة بالعلاقات التجارية والاقتصادية خاصة موضوع التوسع فى تصدير المنتجات الأرمنية إلى دولة الإمارات العربية المتحدة .

وعلى هامش الملتقى ، تم افتتاح معرض فى الجناح الأرمنى للسلع التصديرية الخاصة بالشركات الأرمنية . وفى يوم ٢ مايو ، أُقيم حفل مخصص لأرمينية حضره نائب وزير التنمية والتعاون الدولى الإماراتى عبد الله الصالحى . وبعد هذا الحفل ، زار نائب الوزير الصالحى بصحبة سفير أرمينية بالإمارات كيغام غريبچانيان الجناح الأرمنى . وفى إطار هذا الملتقى تمت اجتماعات عديدة بين رجال الأعمال الأرمن والإماراتيين . وعُقدت اتفاقات بشأن التعاون المتبادل كما تم التوقيع على مذكرة تفاهم بين الجانبين الأرمنى والإماراتى .

فوق أرجوحة البهلوان

إعداد : عبد الله الصاوى

تأليف : وليم سارويان

اتفق النقاد على أن من يعرف الأديب الأرمنى الأمريكى العالمى وليم سارويان (١٩٠٨ ـ ١٩٨٢) لا يمكن الانفكاك من التأثر به نتيجة الخاصية المذهلة لكتاباته ؛ فهو يكتب ببساطة عجيبة عن أغلب الموضوعات المعقدة التركيب ، وبرشاقة قلَّ نظيرها ، وسلاسة سردية فائقة العذوبة . ورغم أنه كتب بالإنجليزية ، فقد نظر إلى نفسه بأنه كاتب أرمنى محض ؛ إذ تفوح أعماله بـ «روح أرمينية» علاوة على إنسانية نبيلة وحب للحقيقة . إن أدب سارويان قريب من كل الشعوب ك إذ أنه بإيجاز مهتم بكل الأجناس والشعوب ويتناول عالم سارويان «الثقوب السود» فى لوحة الحياة . وحسب نقاد عالميين ، يُصنف سارويان ضمن الكتاب المهاجرين إلى أمريكا الذين حملوا معهم الكثير من أوطانهم وأضافوا للأدب الأمريكى التنوع الثقافى ؛ فقد جلب سارويان معه الشخصيات وقصصه وبؤسه وبساطته وطرافته ، وكذا ، سلسلة من المآسى والمذابح والإبادة . ولذا ، يُنظر إليه على أنه «النكهة الأرمنية» فى الأدب الأمريكى . وثمة حكمة تبقى خالدة من أقوال سارويان : «كان كل يوم جديد بمثابة مغامرة مثيرة ، فاليوم فى حد ذاته مغامرة بصرف النظر عن الأحزان التى تقع فيه . هذا اليوم الجديد فرصة للاقتراب من منابع الصحة الفكرية والجسدية التى تتساوى مع معانى الخلود التى يتخيلها الإنسان» .

وفى وقت مبكر جداً ، كان سارويان معروفاً فى الأوساط الثقافية المصرية ؛ فقد ترجم أحمد عباس صالح قصة قصيرة من أعماله إلى قراء الضاد وهى «فوق أرجوحة البهلوان» ، ونشرتها مجلة «التحرير» فى عددها الصادر يوم ١٢ أكتوبر ١٩٥٤ . ويُسعد «أريك» أن تُعيد نشرها فى هذا العدد .

ممدداً فى يقظة كاملة وسط العالم الفسيح حيث جرّب الضحك والسرور واللوم والتقريع . ووقف عند نهاية كل شئ ، من روما القديمة . نعم . ومن بابل ، ضاغطاً أسنانه . والذكريات ، وحرارة البراكين . وشوارع باريس ، وسهول «الخليل» متسللاً كما لو كان ثعبانّى التكوين . ومعرض لرسوم مائية ، والبحر والسمك ذو العيون ، وموسيقى سيمفونية ، ومائدة فى ركن من أركان برج إيفل ، وموسيقى الجاز فى دار الأوبرا ، والمنبه ودقاته الرتيبة كأنها دقات القضاء ، وحديث مع شجرة ، ونهر النيل ، وصخب دوستويفسكى ، والشمس المظلمة .

هذه الأرض ، ووجه أحد الأحياء ، وشكل بغير مضمون ، وبكاء فوق الثلج ، وموسيقى بيضاء ، والزهرة الكبيرة فى حجم العالم مرتين ، وسحب

سوداء ، والنمر يتحدق بعينيه فى قفصه الحديدى ، ومكان خالد لا يدخله الموت ، ومستر إليوت بأكمامه المشمّرة ينضج خبزاً ، وفلوبير وجى دى موباسان ، ولحن لا كلام فيه عن معان لم تزل بعد بكراً ، وفنلانديا، ومسائل الرياضة العليا ، وبيت المقدس ، والطريق المفضى إلى اللغز .

والأغنية التى تُبعث من أعماق الإنسان ، وشخص لم يره ولكنه يعرفه معرفة غامضة يهمس فى أذنه بفكرة خبيثة ، وعاصفة على حقل من القمح ودور فى لعبة شطرنج ، والملكة ، والملك ، وكارل فرانز ، وتيتانك السوداء ، وبكاء مستر شابلن ، وستالين ، وهتلر ، وخليط من اليهود ، غداً يوم الإثنين ، ولا رقص فى الشوارع .

يا للحظة الخاطفة من الحياة ، إنها تنتهى ، وها هو ذا يعود إلى الأرض مرة أخرى . ها هو ذا يستيقظ من نومه . أخيراً .

هو (ذلك الكائن) الحى قد ارتدى ملابسه وحلق ذقنه ، وجعل ينظر إلى نفسه فى المرآة عابساً ، ثم قال : «كم هى رثة ثيابى . أين ربطة عنقى » (وليس عنده غير واحدة) . قهوة وسماء رمادية ، وضباب المحيط الهادى ، وصوت العربات وهى تعبر الطريق ، والناس يذهبون إلى المدينة ، والوقت مرة ثانية ، والنهار ، ونثر وشعر .

هبط السلم سريعاً إلى الشارع وبدأ يمشى ، ثم فجأة جعل يُفكر أنه فى النوم فقط نعرف أننا نحيا ، فى هذا الموت الحى نلتقى بأنفسنا وبالأرض البعيدة ، وباللّٰه وبالقديسين وبأسماء آبائنا ، وبجوهر اللحظات السحيقة . هناك تغوص القروض فى لحظة ، حيث تُصبح الأبعاد المترامية غاية فى الدقة .

مشى فى النهار خفياً على سجيته ، محدثاً صوتاً بكعبيه ، وهو يجيل عينيه فى الشوارع والأبنية والأشكال ، والحقيقة التافهة التى تُعطيها عن الواقع . وعلى الرغم منه انطلق يُغنى : إنه يطير فى الجو بسهولة رائعة . ذلك الشاب الجسور فوق الأرجوحة الطائرة . وعندئذ ضحك بكل ما فيه من حياة ، لقد كان حقاً صباحاً رائعاً : رمادياً . بارداً ، معتماً ، صباحاً يبعث على القوة والنشاط ، ثم قال «آه يا إدجارجست ، كما أنا مشوق لموسيقاكَ» . وفجأة عثر فى البالوعة على قطعة نقود من فئة البنس مؤرخة ١٩٢٣ . ووضعها فى كفه وجعل يتفحصها ، ثم سرح بذهنه إلى ذلك العام ثم فى «لنكولن» الذى كان رسمه محفوراً عليها ، لم يكن هناك ما يستطيع أن يفعله رجل ينسى .

وفكر «سوف أستأجر سيارة ، سوف أكسو نفسى بملابس أنيقة ، وأدخل فندقاً فخماً فأشرب وآكل ، وعندئذ أعود إلى السكينة . أو سألقى قطعة النقود فى ثقب ميزان وأزن نفسى» .

كان خيراً أن يكون المرء فقيراً ، ولكن الجوع شىء مريع . وتذكر إلى أى حد هو فى حاجة إلى الطعام ، كل وجبة كانت خبزاً وقهوة وسجائر ، والآن لم يعد لديه خبز ، وقهوة بغير خبز لا يُمكن أن تكون عشاء مشرفاً . وفوق ذلك فلا يُوجد فى الحديقة أعشاب تُطبخ كما تُطبخ السبانخ .

لو عرفت الحقيقة . إنه نصف جوعان ، ولا نهاية بعد للكتب التى يجب أن يقرأها قبل أن يموت . وتذكر شاباً إيطالياً فى إحدى مستشفيات «بروكلين» كان كاتباً نحيلاً يُدعى (موليكا) قال له فى يأس :

ـ لأشد ما أتمنى أن أشاهد بعينى كاليفورنيا مرة واحدة قبل أن أموت . وعندما فكر فى الموت عادت إليه اليقظة . والآن صارت اليقظة صدمة عليه أن يتحملها «إن الإنسان قد يهلك دون أن يدرى به أحد» . وقد كاد بالفعل أن يهلك جوعاً . الماء والأدب شيئان جميلان ويشغلان أكثر من حيز . ولكنهما لا يكفيان وحدهما .

لو أن هناك عملاً يعمله من أجل الحصول على المال ، أى عمل تافه من أعمال التجارة ، لو سمحوا له بشىء واحد فحسب ، أن يجلس إلى مكتب ويجمع الأرقام ويطرحها ويقسمها ، فلن يموت إذن . وإذ ذاك سيشترى طعاماً . كل أنواع الطعام : ألواناً من الحلوى لم يذقها . . . من النرويج وإيطاليا وفرنسا ، ولحم من كل نوع ، من لحم البقر أو الضأن . . . والسمك والجبن ، والعنب والتين والكمثرى والتفاح والبطيخ . . . إنه سيقيم طقوس العبادة لها بعدما يُشبع جوعه . سيضع عنقوداً من العنب الأحمر فى طبق ، وإلى جانبه تينتان ناضجتان ، وثمرة صفراء من الكمثرى الكبيرة . وتفاحة خضراء . . . وسيمسك بقطعة من البطيخ ويشمها ساعات طوالاً . وسيشترى أرغفة مقددة من الخبز الفرنسى ، وخضروات من كل نوع ، ولحماً . . . وحياة !

ومن فوق التل رأى المدينة تنتصب شامخة فى حلال عند الشرق . بأبراجها العظيمة ، ممتلئة ببنى جنسه ، ولكن ها هو ذا يجد نفسه فجأة مطروداً منها كلية ، ويكاد يُوقن بشكل قاطع أنه لن يُسمح له بدخولها مرة ثانية ، بل يكاد يجزم أنه ـ بشكل ما ـ اقتحم الأرض خطأ ، والآن ها هو ذا شاب فى الثانية والعشرين من عمره يُطرد منها إلى الأبد . ولم تُحزنه الفكرة مع ذلك . فقد قال لنفسه : سيكون لزاماً علىَّ فى وقت قريب أن أكتب طلباً بالتصريح بالحياة .

ولقد تقبل فكرة الموت دون أن يشعر بأدنى شفقة على نفسه أو على غيره من الناس . وهو يعتقد أنه على الأقل سيُتاح له أن ينام ليلة أخرى ، وكان إيجار غرفته مُسدداً ليوم آخر ، فهناك إذن غد آخر . وبعد ذلك قد يذهب إلى حيث يذهب الذين لا مأوى لهم . وقد يفعل أكثر من هذا فيزور «جيش الخلاص» ويُرتل صلاة للرب وليسوع المسيح . ويدعوه أن يُنقذه ، ويُطعمه ويُهيىء له مأوى ينام فيه . ولكنه كان يعلم أنه لن يفعل . فقد كانت حياته حياة خاصة . وتلك حقيقة لا يُريد أن يُحطمها . بل خير له أن يفعل أى شىء آخر دون أن يُدخل أحداً فى حياته الخاصة !

وكان يشعر بأن عقله يئز أزيز النحلة كما لو كان يتأرجح فى الهواء ، وكان ذلك ممتعاً حقاً ، بل وباعثاً على الإغراق فى الضحك . أرجوحة طائرة إلى صرب من الأبدية . . . ولقد ابتهل إلى اللّه بحرارة ليمنح القوة فيُحلِّق كما يجب .

وقال لنفسه : «إن لدىّ سنتاً واحداً ، وأنه لعملة أمريكية ، وفى المساء سأجلوه حتى يلمع لمعان الشمس وسوف أدرس الكتابة المنقوشة عليه» .

وكأنه الآن يمشى فى المدينة نفسها ، بين الأحياء ، وكان أمامه مكان أو مكانان يستطيع الذهاب إليهما ، ولقد رأى صورته تنعكس على زجاج واجهات المحال ، فلم يشعر بالارتياح لصورته . وبدا له أنه ليس قوياً كما كان يشعر ، بل لقد كان يبدو فى الواقع كأن وهناناً فى كل جزء من جسمه ، فى رقبته ، فى كتفيه ، وذراعيه ، وركبتيه . ولكن ليس لهذا أهمية . وبعد مجهود نجح فى استجماع أعضائه التى بدت كما لو كانت قد انفصلت عنه بالفعل ، ووقف منتصباً بشدة وهو يطصنع الصلابة .

ومرّ بعدد كبير من المطاعم الممتازة بنظامها الفخم ، ولكنه كان يرفض حتى مجرد التطلع إليها ، وأخيراً وصل إلى مبنى دخله ، وارتقى مصعداً إلى الدور السابع ، ثم اجتاز بهواً وفتح باباً ، ثم دخل مكتباً لتشغيل العمال ، وكان فى المكان أكثر من عشرين رجلاً ينتظرون ، وانتحى لنفسه ركناً وقف ينتظر فيه دوره حتى يُؤذن له فيُسأل كالآخرين . وفى النهاية مُنح هذه الخطوة الكبيرة . ودعته عانس فى الخمسين من عمرها . نحيلة مشتتة الذهن . وقالت له :

ـ والآن قل لى ماذا تستطيع أن تفعله ؟

ولقد ارتج عليه وقال فى يأس :

ـ أستطيع أن أكتب .

فقالت العانس العجوز :

ـ تقصد أن خطكَ حسن . أليس كذلك ؟

وأجاب :

ـ نعم ، ولكننى أقصد أننى أستطيع الكتابة .

وقالت العانس وقد كاد يستبد بها الغضب :

ـ تكتب ماذا ؟

فقال فى بساطة :

ـ أدب .

وساد سكون قطعته السيدة أخيراً قائلة :

ـ هل تستطيع أن تكتب على الآلة الكاتبة ؟

قال :

ـ بالطبع .

فعادت العانس تقول :

وهو كذلك . إن لدينا عنوانكَ ، وسنتصل بكَ ، ولكن ليس لدينا شئ هذا الصباح ، لا شئ على الإطلاق .

وكاد يكون هذا هو ما حدث له بالفعل عندما دخل مكتباً آخر فيما عدا أن الذى سأله هناك شاب يملأه الغرور . شديد الشبه بخنزير ، ومن مكاتب التشغيل ذهب إلى الشركات الكبرى . وهناك قابلوه فى خيلاء وقابلهم بذلة وخنوع . وجاءه الرد أخيراً بأن ليس هناك أى عمل . ولم يشعر بعدم الارتياح . والأعجب من هذا أنه لم يشعر أنه مسئول عن كل هذه الحماقة ، كان شاباً فى ريعان الشباب يحتاج إلى المال . ولم يكن هناك وسيلة للحصول عليه إلا بالعمل ، ولكنه لم يكن هناك أى عمل . ولقد كان هذا مشكلة عويصة حقاً . مشكلة أراد أن يجد لها حلاً للمرة الأخيرة . والآن ها هو ذا يشعر بالارتياح لأن المسألة قد أُغلقت دونه .

وبدأ يُدرك أن حياته تأخذ طريقاً مرسوماً ، ولقد كانت حياته خلواً من الجمال إلى حد كبير فيما عدا بعض لحظات . ولكنه الآن ـ وفى الدقيقة الأخيرة ـ صمّم على أن يتقبل الأمر الواقع ما أمكنه إلى ذلك سبيلاً .

ومرّ بعدد كبير من الحوانيت والمطاعم وهو فى طريقه إلى جمعية الشبان المسيحية حيث طلب لنفسه ورقاً وحبراً ، وبدأ يكتب طلباً للالتحاق «بجيش الخلاص» ولقد ظل طيلة ساعة وهو يُدبج وثيقته ، وفجأة ، وبسبب رداءة جو المكان والجوع شعر بالإغماء . وُخيل له أنه يخرج من جلده ويسبح فى الهواء وهو يضرب بذراعيه ضربات قوية ، وغادر المكان مسرعاً . وبعد لحظات وجد نفسه فى الحديقة العامة المواجهة لدار الكتب ، وعبأ من الماء ما يقرب من ربع جالون وعندئذ شعر بالانتعاش وكان هناك رجل يقف وسط الميدان بالقرب من بركة الحديقة محاطاً بطيور النورس والحمام والعصافير . وكان الرجل يملأ يده بفتات الخبز من كيس كبير من الورق ويلقى بها إلى الطيور كما لو كان يصنع شيئاً جليلاً .

ولقد أحس إحساساً غامضاً أنه مضطر لأن يسأل هذا الرجل أن يُعطيه بعضاً من هذا الفتات . ولكنه لم يسمح لهذه الفكرة أن تُسيطر عليه ، ودخل دار الكتب . ومكث بها ساعة يقرأ «بروست» ، وعندما شعر بالإغماء يُعاوده اندفع خارجاً .

وعبأ قدراً آخر من نافورة الماء بالحديقة ، ثم بدأ يسير فى طريقه الطويل إلى حجرته .

وقال :

ـ سأذهب إلى حجرتى مرة أخرى فليس هناك ما أفعله .

ولقد أدرك الآن أنه كان مرهقاً وضعيفاً لدرجة أنه أصبح لا يستطيع أن يخدع نفسه بأنه مازال بخير ، ولكن عقله ظل مع ذلك يقظاً منتبهاً . كان ذهنه يُصر علي السخرية من تعبه البدنى . كما لو كان هذا الذهن كياناً آخر مستقلاً عنه . ووصل إلى حجرته بعد الظهر بقليل . وبادر فى الحال إلى إعداد القهوة على موقده الغازى الصغير . ولم يكن هناك شئ من اللبن ، أما نصف الرطل من السكر الذى اشتراه منذ أسبوع ، فقد نفد جميعه . وتناول قدحاً من السائل الأسود الساخن وهو يجلس على فراشه مبتسماً .

كان قد سرق عدداً من ورق الخطابات من جمعية الشبان المسيحية وكان يأمل أن يُكمل وثيقته عليها . ولكنه الآن يرى أن فكرة الكتابة نفسها أصبحت شيئاً لا يبعث على السرور ، ولم يكن هناك ما يقوله ، وبدأ يصقل البنس الذى وجده فى الصباح . ولقد بعث فى نُفسه هذا العمل التافه متعة كبيرة . فليس هناك عملة أمريكية أخرى يُمكن أن تلمع مثل البنس .

«كم بنساً يحتاج إليها ليستمر فى الحياة» .

هل لايزال هناك شئ آخر عليه أن يبيعه ؟

وتلفت حوله فى الغرفة العارية . لقد ذهبت ساعته . وكذلك كتبه . كل هذه الكتب الجميلة . تسعة منها باعها بخمسة وثمانين سنتاً . ولقد شعر بالمرض والخزى لتخليه عن كتبه ، لقد باع أحسن بدلة لديه بدولارين ولم يشعر بما يشينه . إنه لا يعبأ بالملابس مطلقاً ، ولكن الكتب كان أمرها مختلفاً ، وإنه ليُؤلمه ويُغضبه أن يعتقد أنه لم يعد هناك احترام لهؤلاء الذين يكتبون .

ووضع البنس اللامع على المنضدة ، وجعل ينظر إليه بفرح البخيل ، وقال :

ـ ما أجمل ابتسامة البنس !

ونظر إلى الكلمات المنقوشة عليه دون أن يقرأ منها شيئاً . وكان مكتوباً عليه بعض كلمات باللغة اللاتينية وإلى جوارها هذه الكلمات :

ـ « . . . سنت واحد . الولايات المتحدة الأمريكية . . . » .

ثم قلب البنس على وجهه الآخر ، ورأى صورة لنكولن وهذه الكلمات : بإسم اللّه نُؤمن بالحرية ـ ١٩٢٣ .

ثم قال :

ـ ما أجمل هذا !

وأخذ النعاس يسعى إليه ، وشعر بمرض مخيف يسرى فى دمه ، وأحسّ بالغثيان وبدنه يتحلل . ووقف حائراً مذهولاً إلى جانب فراشه وهو يقول لنفسه :

ـ ليس لدىّ ما أفعله غير النوم ، وكان قد بدأ بالفعل يشعر بنفسه يسبح ويضرب ضربات قوية فوق أرض سائلة ، سابحاً نحو البداية ، وانكفأ على وجهه فوق الفراش وهو يقول :

ـ علىّ أولاً ـ على الأقل ـ أن أعطى هذه القطعة من النقود إلى طفل ما ، فإن الطفل وحده يستطيع أن يشترى عدداً من الأشياء ببنس .

ثم سرعان ما غادر جسده برشاقة وخفة بهلوان يلعب على العقلة الطائرة وفى لحظة خالدة استحال إلى جميع الأشياء فى وقت واحد ، الطير . السمك ، القوارض ، الزواحف ، الإنسان . وكان هناك محيط من المطبوعات يترجرج إلى ما لا نهاية أمامه فى الظلام . أما المدينة فقد احترقت ودارت الأرض ، وعندما عرف أنه وصل إلى هذا الحد أدار وجهه نحو السماء الفارغة ، وأصبح كاملاً . لا يحلم ولا يعيش .

الفولكلـور العربـى فـى سينـاء

تراث الموسيقى والرقص والإنشاد

بقلم : فرج العنترى

احتلت سيناء فى التاريخ العربى مكانة مميزة ، لأسباب دينية وتاريخية ، فقد كانت مسرحاً لحروب ثلاث معاصرة ، تجاوزت تأثيراتها الحدود الإقليمية إلى العالمية ، ولم تتوقف الأطماع الصهيونية فيها حيث تعددت محاولاتها لطمس معالم انتماء سيناء - مصرياً وعربياً - ولكن الدراسة العلمية لموروثاتها الشعبية تدحض هذه المحاولات ، وتُؤكد انتماءها العربى . والحديث عن فنون الموسيقى الشعبية والرقص الشعبى فى سيناء ، يتطلب ابتداءً وبمقتضى المنهج العلمى و تمهيداً أولياً بالتعرف على خصائص الموقع وسكانه وعاداتهم ، لا لشئ إلا لأن الفن أولاً وأخيراً كالأدب ، لا يخرج أبداً عن كونه إنتاجاً إنسانياً ، يتأثر ببيئته المحدودة ويُؤثر فيها .

مصرية الموقع وأهميته

باستقراء التاريخ ، والاستفادة من الكشوف الأنثروبولوجية يُمكننا التأكيد على مصرية سيناء مكاناً ، وامتدادها عربياً تاريخياً ، ومن الأدلة التى تُوثق هذه الحقيقة اليقينية :

أ - ثبوت التشابه التام بين أدوات الصيد والقتال المصنوعة من حجر الصوان بفترة العصر الحجرى فى مناطق أبو عجيلة والروافع بسيناء ، وبين ما تم اكتشافه منها فى المعادى وحلوان والفيوم وعين شمس والصحراء الغربية .

ب - التوكيد التاريخى بأن كلاً من الدلتا وسيناء كانتا قبل عصر الأسرات المصرية تُشكلان معاً وحدة جغرافية سياسية بإسم الوجه البحرى .

جـ - وجود العديد من الآثار المصرية فى سيناء مثل مستعمرة الملك سنفرو لسكنى عمال مناجم النحاس والفيروز ، ومعبد الإلهة حتحور - إلهة النحاس والفيروز ، وما تركه من النقوش على جدران معابد سيناء ومناجمها وحصونها كل من الملوك : زوسر وبيبى الأول والثانى .

د - زيارة المؤرخ الإغريقى هيرودوت لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وما رُوى عنه من أن دليله طوّف به عند بلدة «بايريميس» فى شمال غرب سيناء ، وأنه لما شاهد لعبة «التحطيب المصرى» هنالك ، عدّها يومئذ معركة كاد ينخلع لها قلبه ، لولا أن طمأنه الدليل على أن المسألة مجرد لعبة تمثيلية وحسب .

تُعد سيناء طوال فترات التاريخ بوابة مصر الشرقية . وأنها كانت ولاتزال طريق هجوم الغزاة عليها بمقدار ما كانت ميداناً تحركت وتتحرك فوقه قواتها المسلحة للردع والانتصار .

باحث فى الفولكلور

وبعد ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى بالجزيرة العربية ، قام المسلمون بضم سيناء ، ومن يومها بقى فيها من أصل القبائل ذات الأثر كل من الحمامضة ، التينة ، المواطرة ، البدارة . وهذا عدا أن شيوخاً مازالوا يُؤكدون فى رواياتهم التاريخية المتواترة ، كيف أن ٧٥ قبيلة أخرى من بلاد نجد والحجاز كانت قد هاجرت من هناك بسبب القحط والحروب إلى سيناء مصر ، وإلى بئر سبع فى جنوب فلسطين ، ثم انتقل معظمها بعد ذلك إلى الدلتا والوادى فى مصر وإلى سورية أيضاً ، وهم يذكرون من هذه القبائل المهاجرة الوحيدات - الرشيدات - الرتيمات - الجبارات - المعازة - الطميلات - بنو واصل - بنو سليمان - العبابدة - النفعيات .

العادات والتقاليد

ويتضح أن المزاج النفسى والتكوين الفكرى ، بجانب العادات والتقاليد والأعراف التى يتصف بها أهل سيناءُ تشكل جميعاً خليطاً متوافقاً من نفس خصائص الأمة العربية ومزاجها ، بعد أن تجمعت كل هذه العناصر فى وعاء الإذابة الإقليمى . بمعنى أن كل سيناوى بحسه الفطرى لا يعترف بأية فواصل أو حدود سياسية فيما بين الأقطار العربية ، بل يرى أن امتداد مساحة أرض ذويه يذهب مع وجود اللسان العربى والبدوى إلى أية أبعاد مكانية . فإذا عرفنا أن تعداد البدو فى سيناء يستوعب ٧٠ ٪ من جملة السكان ، وجدنا أن الحضرى المقيم حتى العريش - مع أخذه بظاهرة المدنية وأسبابها - يتكلم لهجة تجمع بين المصرية القاهرية والصعيدية والشامية والبدوية معاً ، ويظل أقرب فى أعرافه وتقاليده إلى بدو الصحارى ، ومن هذه الأعراف والتقاليد نجد موروثات الشجاعة والإقدام والكرم والمروءة والصبر الطويل والحرص على شجرة النسب .

فمن الشواهد على أعرافهم أنهم يتقدّمون أثناء القتال لمواجهة عدوهم صفاً واحداً ، وإذا ما فرغت نيران البنادق حملوا عليه بالسيوف حتى النصر أو الشهادة ، وفارسهم يُكنى فى الميدان باسم أخته أو ابنته فيُصبح : أنا أخو فلانة ، أنا أبو فلانة . ومن العيب الكبير عندهم أن يفر الرجل من القتال أو أن يتخلف عن نجدة رفيقه ، وكل من يرتكب هذه الشناعات أو بعضها لا تقبل الفتيات زواجه ، وإذا ما حدث ودخل مجلساً للقهوة أو الشاى ، فإن الساقى يتظاهر أمامه بتقديم قدح له ، لكنه يسكبه أمامه على الأرض تحقيراً له واستخفافاً ، فيضطر إلى الانصراف من المجلس مشيعاً بالازدراء إلى حيث لا يعرفه أحد .

وعند استضافتهم لشخصية كبيرة ، يُجلسون الضيف فى صدارة خيمة مفروشة بالبسط والضفور - مساند الجلوس - ويتجمع فرسانهم للتسابق بالخيل أمام خيمة الاستضافة نحو نصف الساعة على زغرودة النساء ، وبعدها تُوقد نار القهوة أو الشاى فيُقدمونها ، ثم يتم تقديم الطعام الوافر فى مناسف هى عبارة عن أوعية خشبية مستديرة يستوعب الواحد منها طعام فوج من المدعوين ، فإذا ما انتهى أكل الضيوف من ثريد الأرز والخبز واللحم ، كان للمضيف وأ ولاده أن يأكلوا مما تبقى ، وبعد الأكل يبدأ سامر الرقص والغناء . وهذا على أنه إذا ما فوجئ البدوى فى سيناء بحلول ضيف ، ولم يكن تحت يديه مما يُسعف همة كرمه ، صار من حقه المتعارف عليه أن يتناول من قطيع جاره شاة أو عنزاً أو حتى جملاً بمثابة إعارة عليه أن يردها إلى صاحبها خلال أسبوعين ، وإلا حق له أن يستردها عنوة ، وهم فى هذا يتواصلون بأن يقوم المضيف دائماً بوضع علامة على جمل ضيفه ، كيما تكف يد صاحب الإعارة عن المساس به عند اقتضاء حقه .

الصهيونية تسرق فولكلور سيناء

وعن الموجودات الفولكلورية من الموسيقى والغناء

والرقص فى سيناء ، ينبغى أن نشير ابتداءً ، إلى أنه قد جرت فى مصر محاولتان للتعرف ضمنياً على نماذج من الموسيقى وأغانى شبه جزيرة سيناء ، وكانت المحاولة الأولى داخلة فى نشاط لجنة التسجيل بمؤتمر الموسيقى العربية الأول بالقاهرة ١٩٣٢ ، والثانية قام بها الخبير الرومانى ألكسندر تيريو مدير مركز الفنون الشعبية فى مصر ١٩٦١ .

ويُحدثنا عن المحاولة الأولى الدكتور روبرت لاخمان أمين قسم الموسيقى بمكتبة برلين الحكومية ، ورئيس لجنة التسجيل بالمؤتمر ـ وهو صهيونى ـ فيذكر فى تقريره أنه قام بعدة رحلات بالقطر المصرى لغرض جمع نماذج موسيقية وغنائية ، وأنه كان قد سافر إلى طنطا وقرى الدلتا فى المدة من ٧ إلى ١٦ أبريل ١٩٣٢ ، وإلى الأقصر والواحة الخارجة ، فى المدة من ١٨ إلى ٢٧ أبريل ، ومن ٢٨ أبريل إلى ٢ مايو إلى الفيوم ، وأخيراً فى المدة من ٣ مايو إلى ٦ منه بالقنطرة لسماع موسيقى بدو شبه جزيرة سيناء .

من اللافت للنظر أن اليهودية الألمانية الدكتورة برچيت شيفر التى قامت بدور قيادى فى تعليم الموسيقى بمصر وبمعاهدها العليا لفترة طويلة ـ كانت قد بدأت جولاتها فى الواحات فى شتاء ١٩٣٢ لإعداد رسالة دكتوراة عن آلات الموسيقى الشعبية فى واحة سيوة بتوجيه من اليهودى الألمانى كورت زاكى عضو مؤتمر الموسيقى العربية ١٩٣٢ أيضاً . وعلى الرغم من عدم الاستدلال على بيان محدد عما قام به روبرت لاخمان من تسجيلات لأغانى سيناء فضلاً عن عدم وجود أية تدوينات موسيقية للعملية بكاملها تحت أيدينا ، فإنه سجّل فى تقريره للمؤتمر أحكاماً عن أغانى بدو سيناء التى استمع فى القنطرة إلى ما عدّه نموذجاً جامعاً مانعاً لها وادعى بأنها تختلف اختلافاً شديداً عن أغانى بدو الجهات الغربية والفيوم ، وراوغ فى الحديث عن علاقة جذور موسيقى سيناء مع موسيقى بدو الشرق ، بأنه «لا يُمكنه البت فيها بغير معرفة موسيقى الشام وموسيقى شبه جزيرة العرب» متذرعاً بأنه لم يكن لديه من الوقت ما يُمكنهِّ من ذلك ، وقال أيضاً «إن طراز الغناء البدوى الرتيب يمتد من النيل إلى المغرب ، على حين أن نماذج الموسيقى البدوية الآسيوية فى سيناء من تقاليد مختلفة» .

وما من شك فى أن غمز لاخمان واضح فى الإيهام بأن فولكلور سيناء الموسيقى مقطوع الصلة بتاتاً بمصر وببلاد المغرب وحتى ببلاد المشرق العربى ، دون أن يُقدم لنا المبررات العلمية ، وهذا على حين أننا نجد فى سيناء حتى الآن صيغة الموال ضمن مأثورات الغناء ، وهى صيغة «مصرية عربية» تربط الصلة ولا تلغيها ، كما نجد لون الحذاء البدوى المعروف بتقاليده العربية نفسها فى ممارسات الحياة اليومية ، وأن أى إبداع «سيناوى» ـ وهم يُسمون من يتغنى بمطارحات النظم «فور الديهة» بهذا الاسم ـ لايزال هنالك يُمارس عادة عربية قديمة من أيام سوق عكاظ وذى المجنة ، وهى هى نفس ما يتطارح به حتى الآن منشدو المواويل فى ريف الدلتا أو قائلو «المربعات» فى صعيد مصر أو حتى ما يُعرف فى بلاد النوبة بـ «جر النميم» الذى يعنى فى مفهومهم غاية القدرة على الرد الفورى بالنظم على أى نظم ، بل والذى يُفاخر بعضهم بالقدرة فيه على الاستمرار من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر .

على أننا لو تركنا جانباً أحكام الصهيونى لاخمان المهزوزة ، ورحنا نُفتش فى منهج عميلته عن مدى الالتزام بالمطالب العلمية فى جمع وتدوين وتصنيف المادة الفولكلورية ، حسبما أوصت بها مراجع التخصص ، لأمكننا ألا نتحمس لنتائجه ، ولو على أساس أن معاونيه كانوا من الزراعيين لا الموسيقيين ، عدا أنه لم يترك فى مصر شواهد بالتدوين الموسيقى للعملية ، بحيث يُمكن أن تُفيد فى المراجعة ، بل حمل معه إلى مقر وظيفته فى برلين حصيلة وحيثيات العملية

زاعماً أن يُرسل منها إلى وزارة معارف مصر نسخة أصلية على إسطوانات وعندما تسمح الحالة المالية للمعهد (معهد فؤاد الأول للموسيقى سابقاً) باستخراج هذه الإسطوانات وطبعها بالكهرباء» ، ولعله أرسل هذه النسخة التى وعد بها .

والثابت فعلاً بعد كل هذا أنه ـ وهو الصهيونى المتعصب ـ هرب من ألمانيا ١٩٣٥ ، بعد انتهاء مؤتمرنا بعامين ، للعمل بالجامعة العبرية فى القدس ، من بعد أن نقل معه إلى هناك كل التسجيلات العربية والشرقية التى كانت فى حوزة مكتبته ببرلين ، مضافاً إليها حصيلة ما جمعه فى مصر وقد صنع منها للجامعة العبرية أكبر أرشيف من فولكلور الموسيقى العربية والشرقية ، ثم مات ودفن هناك فى ١٩٣٩ .

التسجيل العلمى

وأما عن المحاولة الثانية فقد تمت فى ١٩٦١ بواسطة الخبير الرومانى ألكسندر تيريو مدير مركز الفنون الشعبية فى مصر ، وكان قد تم إنشاء هذا المركز عام ١٩٥٧ لأغراض فنية تخصصية ، فى مقدمتها تسجيل التراث الشعبى المصرى ، ودراسة خصائصه ومميزاته وتيسير الانتفاع به من إنتاج صياغات فنية فى متناول الباحثين .

والواقع فعلاً أن حصيلة ما قام به تيريو موجود بتحليلاته فى محفوظات وزارة الثقافة المصرية (وحدة اليريزم) ، وفى تسجيلات على آلاف الإسطوانات مع نشرة تفسيرية مؤيدة بالتدوين الموسيقى للنماذج وصور من الآلات ، وتقوم الوزارة مشكورة بإهدائها لمن يطلبها من الهيئات والباحثين . لكن الذى خصّ شبه جزيرة سيناء عبارة عن أغنية جماعية أو أغنية «ضمة» تترنم بلواعج الشوق والحب ، كان قد تم تسجيلها فى بلدة المنشية بمنطقة جبل الطور بحناجر كل من الصياد محمد بلال خليل (٧١ سنة) ومجموعة كبيرة أخرى من الصيادين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والسبعين ، غير أن المراجعة اليقظة والتحليل الفنى الذى قام به تيريو وأثبته فى النشرة التفسيرية قد كشف عن أن هذه الأغنية من منطقة القنال على الرغم من توكيد معاونيه المصريين بعكس رأيه .

وأياً ما كان الأمر فإن كلتا المحاولتين لم تتناولا مسح إقليم سيناء كله فولكلورياً لجمع كل ما عساه أن يُوجد بها من موسيقى ورقص شعبيين بالأسلوب العلمى والتخصصى الجامع المانع .

ملامح من فولكلور سيناء

وطبقاً لما أمكن تجميعه من متفرقات عديدة ومراجع مختلفة ، يُمكننا أن نتعرف على بعض الموجودات السيناوية :

(أ) فى آلات العزف : ـ نجد الربابة ، وهى كما نعرف فى شتى الأقطار العربية من الوتريات ذات القوس التى تُستخدم بمثابة الكمان ، ولها صندوق مصوّت عبارة عن نصف جوزة هند تتغطى برق من الجلد ، ويتركب فيها وتران من شعر الخيل ويعزف عليها العازف محمولة فى وضع الرأس بحيث يستند الجزء السفلى منها على ركبته .

ـ ونجد الشبابة أو السلاّمية ، وهى أيضاً وكما نعرفها آلة نفخ من البوص بأطوال مختلفة ولها ثقوب معدودة للأصابع .

ـ ونجد آلة المقرون ، وهى نوع قصير نسبياً من أرغول البوص الريفى المعروف بريشته المزدوجة وبزوج من الأنابيب .

(ب) فى الغناء : سوف نجد أهلنا فى سيناء ـ حتى على أميتهم وفطرتهم ـ ذوى قدرة خارقة على الإيقاع وعلى ترجمة الأحاسيس والمشاعر فى إطار ثلاث صيغ متميزة هى صيغة القصيد لغناء المديح بمصاحبة الربابة ، وصيغة الموّال الذى يترنم به الرعاة وراكبو الإبل ،

وشعراء الغناء فى رقصات السامر والدحية والمشرقية ، وصيغة حداء الإبل فى السير وعند سقياها مع تميز كل قبيلة فى نوع حدائها بمقاطع خاصة ليست لغيرها .

(جـ) الرقص : وإذا كان الرقص فى سيناء مصحوباً بالغناء فردياً وجماعياً ، فإنهم يُمارسون منه ثلاث صيغ كلها تشترك فى وجود «البدّاعين» أو شعراء الغناء الذين يرتجلون ما تُردده المجموعة الراقصة من بعدهم . وتتحدد هذه الصيغ الثلاث فى :

١ ـ رقصة السامر وهى من شكلين : الزرعة والخوجار ، وفى نوع رقصة الزرعة يقف الرجال المشاركون على هيئة مجموعتين نصف هلال مقطوع الوسط فى مواجهة بعضهما البعض ، وبرفقة كل مجموعة «بدّاع» ينشد ومن أمامه امرأة تحمل سيفاً مشهراً ترقص به يُسمونها «الحانية» أو النفيرة (من الاستنفار فيما أرى) ، ثم يبدأ الرقص مع إلقاء أبيات بدّاع الفريقين ، وقيام مجموعته بالترديد مع التصفيق وهز الرؤوس والأعطاف يمنة ويسرة ، ومتابعة لتقدم «الحاشية» ، ثم يجئ الدور على المجموعة الثانية وبدّاعها ، وتتكرر الأدوار حتى تنتهى الرقصة . ومن الجدير بالتسجيل فى هذه الرقصة ودلالاتها أن أبيات الموّال (المصرى العربى) التى تُصور لنا البيئة ومحتواها الطبيعى بمثابة «ديكور» لمشاعر الناس وعاداتهم وأحلامهم السعيدة :

يا طالعين البرارى فى سموم ورياح
لا القلب ساكن هنا ولا شوقكم مرتاح
ع الله يا حلو لو أنك من بنى عمى
لأذبح جمل صاحبى واثنين من دمى
يا ساكنين الصحارى وبلادكم مظماه
قاعد على دربكم والحلو ما بالقاه
يا أهل المحناة ، يا أهل الناقة الزرقا
ما يجرح القلب غير الموت والفرقة

٢ ـ رقصة الخوجار : وهى بأداء رقصة الزرعة نفسه وأسلوبها مع فارق وجود شاعرتىّ إبداع من النساء لا من الرجال ، وهاتان الشاعرتان لا تتحركان طوال أداء كل الرقصة .

٣ ـ رقصة المشرقية : وهى أيضاً تُؤدى بالأسلوب نفسه ، غير أن شعر التغنى فيها متميز بطول الأبيات ، ومن لحن يختلف فى الطابع نوعاً .

رقصة الدحية :

وهى التى دخلت حديثاً إلى سيناء من عرب المشرق ، ثم انتشر تداولها فى منطقتىّ وسط سيناء (بلاد التبه) وشمالها (بلاد العريش) وأصبحت من أشهر متداولاتهم فى السمر . ويقف الراقصون لأدائها صفاً واحداً يحتوى على بدّاع أو أكثر ، وأمام الجميع راقصة الحاشية بسيفها ، ثم يبدأون فى ترديد إنشاد كلمة الدحية الدحية على تصفيق الأيدى وهز الأعطاف ، فلا يلبث البدّاع أن يبدأ بدوره فى إنشاد أبياته التى يُرددها الباقون من ورائه ، وفى عقب كل بيت لهم عباءة «رايحين نجول نريده» وهم يتقدمون من خلف تحرك الحاشية نحو نهاية الساحة ، حيث يجلس الجميع القرفصاء فى مواجهة حاشيتهم ثم تتكرر العملية من البداية .

ومن البيِّن أننا نجد فى هذه الرقصة انعكاساً لفروسية العرب ، وتمسكهم بالدفاع عن الأرض والعرض ، ولعل فى دلالة الحاشية ـ والمحارب منهم يُكنى فى الميدان بإسم أخته أو ابنته ـ ما يُؤكد هذا المعنى لاسيما وإن لهذه الرقصة وجوداً فى الأردن والعراق بجانب مترادفاتها التى تُوجد فى الحجاز على شكل العرضة النجدية وإن كانت تخلو هنالك من عنصر النساء حالياً .

فنون تشكيلية

المثال سركيس طوسونيان فى الستين من عمره

بقلم : هرانت كشيشيان

نُهنئ المثّال السكندرى الكبير سركيس طوسونيان بمناسبة إتمامه العام الستين من عمره فى الحادى عشر من أبريل الماضى . وصديقنا سركيس هو من أكثر الفنانين نشاطاً فى مصر . وبهذه المناسبة لن أخوض فى الكلام عن تفاصيل حياته ، ولكننى سأتحدث عن إنجازاته العديدة إلى الآن ، كنوع من «إلقاء نظرة إلى الوراء» حتى يتسنى للقارئ أخذ فكرة عن المجهودات الضخمة التى بذلها الفنان فى حياته الإبداعية .

قام الفنان حتى الآن بتقديم أعماله من المراحل المتتالية فى ١٥ معرضاً فردياً ، كان آخرها ذلك المعرض الكبير الذى أقامه بأتيليه الإسكندرية فى الفترة من ١٢ - ١٨ نوفمبر ٢٠١١ ، حيث عرض فيه ٤٥ تمثالاً برونزياً مجوفاً من إنتاجه (أنظر عن هذا المعرض مقالى المنشور فى هذه المجلة ، عدد نوفمبر ٢٠١١) .

علاوة على ذلك اشترك طوسونيان فى حوالى ١٥٠ معرض جماعى للفن التشكيلى سواء فى مصر أو فى خارجها . والعدد الكلى لأعماله حسب كتالوجه الشامل وحتى نهاية ٢٠١٢ ، هو ٥٥٣ قطعة من أحجام مختلفة (بدون حساب المكررات) . وهذه الأعمال منفذة بأغلب التقنيات المتاحة لإنتاج الأعمال النحتية ، ومنها تقنيات الصب من معدنى البرونز والألومنيوم ، ثم تقنيات النحت المباشر فى الأحجار المختلفة كالمرمر والجرانيت والخشب . فالفنان يُنوّع دائماً فى التقنيات المتاحة لديه ، حتى يُثرى فنه أدائياً ويتجنب «دوامة» التكرار .

ولقد اشترك الفنان حتى الآن فى ٩ معارض دولية للفن التشكيلى ممثلاً لمصر . واشتراكه الدولى الأول كان بمعرض فى قبرص بمناسبة مرور ٧٠ عاماً على تأسيس مدرسة ميلكونيان الداخلية ، وذلك فى عام ١٩٩٦ ، ، واشترك الفنان بأربع قطع من إنتاجه .

بعد ذلك اشترك فى عام ٢٠٠٣ بعشرة أعمال صغيرة الحجم ، فى معرض الفنانين التشكيليين السكندريين بالأكاديمية المصرية فى روما . ثم كان اشتراكه فى عام ٢٠٠٤ فى مسابقة دولية باليابان للتماثيل الصغيرة فى مدينة كانازاوا Kanazawa .

فى عام ٢٠٠٥ اشترك فى معرض الفنانين التشكيليين المصريين بالخرطوم عاصمة السودان ، وذلك بأربعة تماثيل ، ثم كان اشتراكه التالى بعملين صغيرين ، وذلك فى معرض الفنانين التشكيليين المصريين بروما . وفى عام ٢٠٠٧ اشترك بثلاثة أعمال كبيرة الحجم فى بينالى الإسكندرية لبلاد حوض البحر المتوسط رقم ٢٤ .

واشترك الفنان فى عام ٢٠٠٨ بعملين كبيرين (الارتفاع أكثر من متر) فى صالون الخريف بباريس . ثم اشتراكه فى نفس العام فى مسابقة دولية بمدينة لوزان

بسويسرا ، وذلك بعمل صغير واحد . أما الاشتراك الأخير فى معرض دولى ، فكان فى عام ٢٠١٠ ، وذلك فى معرض الفنانين التشكيليين المصريين بصنعاء (بثلاثة أعمال) . نأتى بعد ذلك لاشتراكه فى سيمپوزيوم أسوان الدولى للنحت لأعوام ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧ و ٢٠٠٨ . كذلك اشتراكه فى سيمپوزيوم النحت من تنظيم مكتبة الإسكندرية ، وذلك فى عامى ٢٠٠٧ و ٢٠٠٨ .

وأخيراً ، سنتحدث عن التماثيل الميدانية من إنتاجه والتى وُضعت فى أماكن مختلفة بمصر . كان أول تمثال ميدانى للفنان هو التمثال الأسمنتى عن الكشافة والذى تم وضعه فى نادى هومنتمن الرياضى بالإسكندرية ، وذلك بمناسبة مرور نصف قرن على تأسيس فريق الكشافة بهذا النادى ، وكان ذلك فى عام ١٩٨٣ . بعد ذلك وضع التمثال النصفى الأسمنتى لبوغوص بك يوسفيان (١٧٦٨ ـ ١٨٤٤) مؤسس الجالية الأرمنية فى مصر الحديثة زمن محمد على ، فى البطريركية الأرثوذكسية الأرمنية بالإسكندرية .

وفى عام ٢٠٠٥ وُضع تمثال برونزى من إنتاج الفنان على مدخل مركز الإبداع بالإسكندرية . أما تمثاله من الجرانيت الوردى عن «الملك» (إنتاج عام ٢٠٠٦) فهو موضوع بساحة المتحف الدولى المفتوح بأسوان .

وفى عام ٢٠٠٧ وُضعت ثلاثة أعمال من إنتاجه فى أماكن مختلفة . فنجد تمثاله المرمرى الجميل وضع فى مكان بارز أمام مكتبة الإسكندرية من الجهة المواجهة للبحر ، وهو تمثال يرمز إلى الإسكندرية . ثم نجد تمثالاً كبيراً بعنوان «الفتاة السكندرية» من الجرانيت الوردى موضوع بساحة المتحف الدولى المفتوح بأسوان .

كما نجد النصب التذكارى البرونزى الذى يرمز عن الصداقة المصرية الأرمنية ، ولقد تم وضعه فى حديقة الحرية بالقاهرة والتى تقع فى مقابل أوبرا القاهرة . وأخيراً تم وضع تمثال «انفتاح» البرونزى فى قاعة المغادرة بمبنى الركاب رقم ٣ بمطار القاهرة الدولى ، وكان ذلك فى عام ٢٠٠٨ .

سأذكر أخيراً بأننى حصلتُ على كل هذه المعلومات الدقيقة عن الفنان سركيس طوسونيان منه هو شخصياً ، فليطمئن القارئ على أنها صحيحة ودقيقة تماماً. وختاماً ، علينا أن نشكر الفنان على ما حققه إلى اليوم من إنجازات مهمة ، أسهمت فى الرفع من شأن وأهمية الثقافة المصرية التى هى رائدة الثقافات الحديثة فى الأمة العربية . والتى تتعرض اليوم ومع الأسف إلى الكثير من الأذى والتدمير . ونتمنى للفنان سركيس طوسونيان المديد من العمر حتى يتمكن من تحقيق المزيد من الإنجازات ، وذلك لصالح البشرية جمعاء .

أرمينية ولبنان

فى ١٤ مايو ٢٠١٣ ، تم تنظيم يوم ثقافى بمبادرة من الطلبة الأرمن بجامعة كاسليك اللبنانية بالتعاون مع مركز دراسات المهجر بجامعة هايجازيان وبمساهمة من السفارة الأرمنية فى لبنان . وقد ألقى خلال مراسم الافتتاح كلمات كل من السفير الأرمنى بلبنان أشود كوتشاريان والأستاذ أنترانيك داكيسيان مدير مركز دراسات المهجر بجامعة هايجازيان وكذلك الأستاذ خليل عبود نائب مدير إدارة شئون الطلبة بجامعة كاسليك . وقد تحدث السفير كوتشايان فى كلمته عن تاريخ الشعب الأرمنى وثقافته . وقد تحدث الأستاذ أنترانيك داكيسيان عن دور الأرمن اللبنانيين فى العلاقات الأرمنية اللبنانية ، كما نُظمت معارض فى ساحة الجامعة ، اشترك فيها الصاغة وصناع السجاد الأرمن . وقد حضر هذا الاحتفال إدارة الجامعة وطلابها وكذلك طلبة الصفوف النهائية لبعض المدارس الأرمنية ، وقد أُنشئت كاسليك فى عام ١٩٥٠ ، وبها ١١ كلية فى المجالات المختلفة .

دراســـــات

السياسة الخارجيّة الأمريكيّة تجاه أزمة دارفور

٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٨

عرض : د . هشام محمد بشير

إعداد : د . سمر إبراهيم

حصلت الباحثة سمر إبراهيم على الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة ، وذلك تحت إشراف أ . د عبد الملك عودة أستاذ العلوم السياسيّة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة ، وأ . د. إجلال رأفت أستاذ العلوم السياسية ومدير برنامج الدراسات الإفريقية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية .

تدور الرسالة حول أزمة دارفور ولاسيما أنها تُعَدُّ واحدةً من الأزمات المُعَقّدة التى تُواجه السودان فى الفترة الراهنة ، ولا تتوقّف تأثيراتُها على إحداث حالة من حالات عدم الاستقرار الداخلي ، وإنما تَتَعدّىَ ذلكً إلى تهديد كيان السودان ذاته ، ولا يتوقّف الأمرُ فى هذا الشأن علَى الأطراف المحليّة ؛ وإنّما يتجاوز ذلك إلى تورط أطراف إقليميّةَ ودوليّة – بشكلٍ مُباشر أو بشكلٍ غير مُباشر فىً الأزمة – مما أخرجها من مًحيطها الداخلىً الوطنى إلى مُحيطها الخارجى فى بُعديه الإقليمى والدولي ؛ ليبدأ فصلٌ جديدٌ من تدويل الأزمة مع عام ٢٠٠٣ .

ويُمكن القول إنّ هناك دوافع خارجيّة عديدة لتدويل أزمة دارفور ، فهى ذات طابعٍ اقتصادى بالأساس ، إلا أنّ لها أبعاداً سياسيّة وإستراتيجيّة لا يُمكن إغفالها ، ولاسيّما أنّ السودان يُعتبر منطقة مصالح اقتصاديّة كبرى بالنسبة للكثيرِ من دول العالم ، على رأسها الولاياتُ المُتّحِدة الأمريكية وفرنسا والصين .

وفى ظل نظام دولى أُحادى القطبيّة تُسيطر عليه الولاياتُ المُتّحدة الأمريكية بدرجة كبيرة ، فقد وجدت ـ الدول الأقوَى فى العالم حالياً ـ الأوضاع الداخلية بإقليم دارفور فرصةً مُناسبةً لفرض أجندتها الخاصة على السودان ، وهى تلك الأجندة التى تعكس مصالح سياسيّة واقتصاديّة وإستراتيجيّة أمريكيّة ، لعبت دوراً كبيراً فى تدويلِ أزمة دارفور ، ونقلها من نطاقها المحلى والوطنى ، بل وَحتى الإقليمى ؛ لتُصْبحَ أزمة دوليّة تحظى باهتمامِ المُجْتَمَع الدولى ، وتلَفت أَنظار الفاعلين فيه ، سواء كانَوا دولاً أو مُنَظّمَات دوليّة حكوميّة أو غير حكوميّة ، مع احتفاظ الولايات المُتّحدة الأمريكية بقيادة الأطراف الدوليّة فى أزمة دارفور .

وتستمد هذه الدراسةُ أهميتها من كون مُشكلة دارفور هى إحدى الأزمات الخطيرة التى تتعرّض لها

الدولةُ السودانيّة، وتُهَدّد وحدتها وسيادتها وسلامتها الإقليميّة، خصوصًا وأنّ مُشكلة الجنوب السودانى قد حُسِمَت بالتصويت للانفصال فى ٩ يولية ٢٠١١ .

كما أنّ هناك عدة أزمات أخرى تنتظر دورها للخروجِ من عقالها سواء كان ذلك فى الشرق، أو فى أقصى الشمال، أو فى المناطق الحدودية بين شمال وجنوب السودان، مثل ولايتّى النيل الأزرق وجنوب كردفان، ومحصلة كل ذلك التفكيك للدولة السودانيّة، وانفراط عقدها إلى مجموعة من الدويلات الصغيرة.

من ناحية أخرى يُشَكّل السودان عمقًا إستراتيجياً لمصر، ومنً ثم عدم الاستقرار الأمنى والسياسى والاقتصادى فى السودان ستكون له انعكاساته على الأمن القومى المصري.

ومن جانب آخر تكمُن الأهميّة التطبيقيّة للدراسة فيما يلي:

- إنّ دراسة كيفيّة تطور الأزمة فى دارفور قد تصلُح كنموذجٍ لأية دولة؛ لعدم تهميش أو إهمال أى طرف من الأطراف داخلَها، لأن ذلك يكون سببًا لكافة التدخُّلات الخارجيّة سواء أطراف دوليّة أو إقليمية.
- إنّ سياسةَ الحسم العسكرى الأمنى التى اتّخذتها الحكومةُ السودانيّة تجاه أزمة دارفور تكاد تُثْبت فشلها، ومن ثم تعتبر نموذجاً لأية دولة بعدم استخدام تلك الآلية لمُعَالجة القضايا والأزمات ذات الأبعاد المُخْتلفة .

وتنقسم الدراسة إلى خمسة فصول حيث يتناول الفصلُ الأول : تأثيرُ فكر المُحَافظين الجُدد تجاه السّياسَةُ الخارجيّة للولايَات المُتّحدة الأمريكيّة وينقسمَ إلى مبحثين تناولَ الأوّلُ : تَطَوّرُ فكر المُحَافظين الجدد، أما الثَانِى : أجْهِزَةُ صُنْعِ الْقَرَارِ فى عهد الرئيس بوش الابن.

أما الفصل الثانى : فيستعرض أسباب اندلاع أزمة دارفور وينقسم الى عدة مباحث، حيث تناول المَبْحَثُ الأول: العواملُ البيئية، أما المَبْحَثُ الثاني: العواملُ الاجتماعيّة، والمَبْحَثُ الثالثُ: العواملُ الاقتصاديّة، والمَبْحَثُ الرابعُ: العواملُ السياسيّة .

ويتناول الفصلُ الثالثُ : سياسة الولايات المُتّحدة الامريكية تجاه السودان وينقسم الى عدة مباحثَ، حيث يتناول المَبْحَثُ الأول: العلاقاتُ السياسيّة بين الولايات المُتّحدة والسودان، والمَبْحَثُ الثاني: العلاقاتُ الاقتصاديّة بين الولايات المُتّحدة والسودان، أما المَبْحَثُ الثالثُ: العلاقاتُ العسكرية بين الولايات المُتّحدة والسودان .

أما الفصلُ الرابعُ : فيعرض سياسة الولايات المتحدةالأمريكية تجاه أزمة دارفور وينقسم إلى مبحثين حيث يتناول المَبْحَثُ الأول: أسباب التدخل الأمريكى فى أزمة دارفور، أما المَبْحَثُ الثاني: الآليات التى اتبعتها الإدارة الأمريكية تجاه أزمة دارفور.

ويستعرض الفصلُ الخامسُ: دورُ الأطراف الدوليّة والإقليميّة وتأثيرُها على إدارة الولايات المُتّحدَة لأزمة دارْفور حيث يعرض الْمَبْحَثُ الأول: دورُ القوى الدوليّة، والْمَبْحَثُ الثَاني: دورُ الأمم المُتّحدَة والْمَبْحَثُ الثَالثُ: دور المُنَظّمَات الإقليميّة.

وقد أسفرت الدراسة عن عدة نتائج نذكر منها:

أولاً: إنّ النهجَ التصعيدى الذى تبنّته الولاياتُ المُتّحدَة تجاه أزمة دَارْفُور ستَكُونُ له انعكاسات مُستقبليّة تجاه بقية الأقاليم فى السودان على اتّباع نفس المنهج، ولاسيّما أنّ هناك عدة أزمات أخرى تنتظر دورها للخروج من عقالها، سواء كان ذلك فى الشرق، أو فى أقصى الشمال، أو فى المناطق الحدودية بينَ شمالِ

وجنوب السودان، مثل ولايتيّ النيل الأزرق وجنوب كردفانَ، وذلك استناداً لدعم مُمَاثل من جانب القوى الكبرى التى لها مصالح إستراتيجيّة واقتصاديّة فى السودان، ومُحَصّلة كل ذلك التفكيك للدولة السودانيّة، وانفراط عقدها إلى مجموعة من الدويلات الصغيرة.

ثانيًا: اتّسمت السياسةُ الخارجيّة للرئيس چورچ دابليو بوش بالمزج بين جناحين مُتَنَاقضينَ، هُمَا الويلسونيّة والچاكسونية، أى سياسات تَسْعَى لنشر الديمقراطيّة وسياسات عنيفة تلجأ لاستخدام القوة فى مُوَاجهة أعداء الولايات المُتّحدَة الأمريكية، وإنْ اتّسمت الفترةُ الثانيةُ لإدارة بوش بالاتجاه إلى الواقعيّة، وتحجيم «عقيدة بوش» بشأن الحرب الاستباقيّة، والعودة إلى التحالُفات والشرعيّةَ، وإضافة مبدأ جديد، وهو اعتبار مُحاربة الطغيان جزءاً من الأمن القومي، وكانت النتيجةُ تراجع وفشلَ السياسة الخارجيّة الأمريكية.

ثالثًا: يُعْتَبَر تيارُ المُحَافظين الجُدد من أهم التيارات الأيديولوچيّة والسياسيّة التى برزت بشكلٍ مُتنام على الساحة الأمريكية، وإنْ كان تأثيرهم يقوىَ ويضْعُف وفقًا للظَروف الدخيلة، وطبيعة التحدّيات الدوليّة التى تُواجهها الولاَياتُ المُتّحدَة الأمريكية من جانب، ومدى إمكانية مُراجعتهم لأطروحاتهم الفكريّة، وأهدافهم السياسيّة وإستراتيچياتهم من جانب آخر.

رابعًا: تنامى دور تيار المُحَافظين الجُدد فى عهد الرئيس چورچ بوش الابن، ولاسيّما تجاه عملية صُنع السياسة الخارجيّة، فقد استطاعوا أنْ يُحوّلوا العديدَ من أفكارهَم إلى سياسات تبنّتها إدارةُ بوش فى فترتها الأولى، وقاموا بالإشراف على تنفيذ هذه السياسات من المَوَاقع التنفيذيّة التى شغلوها فى الإدارة الأمريكية، والواقعُ أنّ تشكيلَ الإدارة فى فترتها الثانيّة لم يشهد أى تغيير فى المواقع التى شغلها المُحَافظُون الجُدد.

خامسًا: حدثَ تغيُّرٌ فى طبيعة صُنع قرار السياسة الخارجيّة خلال عهد الرئيس چورچ بوش الابن، ليس فقط من حيثُ المضمون؛ وإنّما حدثَ انقلابٌ على الأُسس الراسخة التى يقوم عليها النظامُ السياسى الأمريكَى نفسه، فقد اخْتَلّ بوضوح التوازن الدقيق بين المُؤَسّسَات الثلاث: التَنْفيذيّة والتشريعيّة والْقَضَائيّة لصالح الأولى، وانهارتَ الرقابةُ التشريعيّة، بينما شنّت إدارةُ بوش وأنصارها حربًا شرسةً على المُؤَسّسَة الْقَضَائيّة والإعلام، ونجحت فى إحداث انحسار واضح فى مساحة الحُرّيات المدنيّة والسياسيّة داخل الولايات المُتّحدَة نفسَها.

سادسًا: تلعبُ المراكزُ البحثية (خزانات الفكر) دوراً رائداً فى رسم السياسة الخارجيّة الأمريكية، وتبدو خطورةُ تلك المراكز البحَثيّة فى أمرين أساسيين، أولاً: كونها ترتدى ثوب الحياد الأكاديمى وترفعُ شعارَ المصالح الوطنيّة الأمريكية أمام مُنْتَقديها، وثانيًا: هو التأثيرُ المُتَزَايد الذى تُمَارسُه على السَيَاسة الخارجيّة الأمريكية، حيث تخلّت عنَ هذا الحياد، وأصبحت فى مُعْظَمها تخدم توجُهات أيديلوچية مُعَيَّنة.

سابعًا: أسفرت أزمةُ دَارْفُور عن وجود عدد كبير من المُنَظّمات الأجنبيّة فى أوساط مُعَسْكَرَات اللاَجئين السودانيين (الدَارْفُوريين)، ويبدو أنّ هناك نوعاً من السيطرة لهذه المُنَظّمات على كافة الأوضاع وجميع الأنشطة داخل المُعَسْكَرات، فعلى الرغم من الدور الذى تَدّعى هذه المُنَظّمات القيامَ به فى احتواء أزمةَ دَارْفُور، فأنّ هذا لا يخلو من مهام مُسْتَترة عَديدة تسعى تلك المُنَظّمات إلى القيام بها، إمَّا خدمةً لتوجُهات دول مُحَدّدة ولمصَالحها، أو خدمةً لمؤَسّسات دينيّة مُعَيّنة.

ثامنًا : على الرغم من تعدُّد جهود التسوية السياسيّة لأزمة دَارْفُور فهناك ملاحظتان بشأنهما :

أ ـ إنّ الخيطَ الذى يربط كل المراحل جميعاً، ويُفسر عدم القُدرة على إحداث اختراق واضح نحو الحل السياسى يتمثّل فى الخلافات داخل حركتىّ التمرُّد والانشقاقات الداخليّة فى كل منهما، ممّا أدّى إلى غياب الرؤية السياسيّة أو الموقف التفاوضى المُتَماسك، وأحيانًا غياب هيكل محدود للوفود المُفَاوضة، الأمرُ الذى تَمَثّل فى تغيير المُفَاوضين باستمرار، وعدم اتّفاق أعضاء الوفد الواحد مع بعضهم البعض، والطعن فى شرعيةَ تمثيلَهم من الأجنحةَ المناوئة لهم، فضلاً عن اختلاف القاعدة الاجتماعيّة القبليّة، واختلاف تحالفاتها الداخليّة والإقليمية تبعًا لذلك، ممّا أثّر على مواقعها التفاوضية.

ب ـ تعدُّد الأدوار والفاعلين فى ساحة التفاوض، ورغم اختلاف حجم الأدوار وطريقة عملها بشكل مُبَاشر وغير مُبَاشر، حيث إنّ الأجندات الإقليميّة والدوليّة أثّرت على تطوُّر المُشْكلة واتّجاهاتها وأحدثت قدراً من الإرباك؛ لأنّها لا تعملَ بشكلٍ متساوٍ بطبيعة الحال.

تاسعًا : إنْ كانت الحكومةُ السودانيّة تتحمّل قدراً من المسئوليّة لعدم اهتمامها بتنمية الأقاليم المُهَمّشة، وعدم توزيع الثروة والسُلطة بشكل عادل؛ فإنّ ذلك لا يعفى الحركات المُسَلّحة من المسئوليّة عن تصعيد القتال، وانتهاكات حقوق الإنسان؛ حيث استغلّت هذه التنظيمات انشغال الحكومة بمُفَاوضاتها مع الحركة الشعبيّة، ووجود مناخ دولى غير مُتَعَاطف مع الحكومةَ السودانيّة لتصعيد الأزمة هذا بالإضافة إلى اهتمامها بالصراعات الداخليَة على السُلطة.

عاشرا : إنّ الأطراف الخارجيّة لا تصنع الأزمة، وإنما تستغل وجودها من جانب، وفشل الجهود المحلية فى إنهائها من جانب آخر؛ لتتدخل فى حل الأزمة، وهذا ما يتّضح جليًا ليس فى أزمة دارفور فقط؛ وإنما فى الأزمات المُتَجَدّدة التى يشهدها السودان.

وأخيرًا طرحت الباحثةُ عددًا من التوصيّات كالآتي :

- الاهتمام بانشاء مراكز بحثية فى الوطن العربى والقارة الإفريقيّة مُتَخَصّصة فى الدراسات السياسيّة والاقتصاديّة، تعملَ على تقديم المعلومات بالشكل الصحيح، وفى الوقت المناسب لمواقع اتّخاذ القرار بغية ترجمتها إلى قرارات ومواقف وسياسات، حتى يستطيع صُنّاع القرار الاستفادة من مراكز الفكر من أجل الحصول على النصائح والاستشارات بشأن قضايا السياسةَ الخارجيّة والمحليّة.
- وتجدرُ الإشارةُ أنّه على الرغم من تواجد مراكز فكريّة وبحثيّة فى الجامعات مُتَخَصّصة بالقارة الإفريقيّة والسودان، فإنّها تحتاجُ إلى تدعيم الدولَ العربيّة والإفريقيّة حتى نستطيع مُواجهة الأزمات التى تندلع فى القارة الإفريقيّة.
- قيام جامعة الدول العربيّة بإنشاء قناة تليفزيونية تعمل على طرح قضايا العالمين العربى والإسلامى بشكل محايد، ولاسيّما أنه فى الألفية الثالثة أصبح الإعلام سلطةً فاعلة وعلى درجة من الأهمية؛ إذ يتدخّل فى صنع السياسة الخارجيّة والداخلية، ومن ثَمّ يتم تحقيق هدفين أساسيين :

١ ـ التأثير على وسائل الإعلام الأمريكيّة والغربية فى عرض القضايا العربية والإسلامية.

٢ ـ تحسين الصورة الإعلامية عن العالمين العربى والإسلامى.

- ضرورة قيام حكومات الدول العربيّة ـ فرادى أو عبر

جامعة الدول العربيّة ـ بدعم وحدة السودان عن طريق تنمية إقليم دَارْفُور، والذى تعرّض للتهميش من جَانب الحكومات السودانيّة المُتَتَاليّة، واقترحت الباحثة عَدة آليات لتدعيم التنمية الاقتصاديّة فى الإقليم ومنها :

أ ـ أنْ يتم توزيع عائد الثروات الطبيعيّة بنسبة السُكّان، والاهتمام بالتنميّة البشرية، وأنْ يتم وضع خرائط استثماريّة مُلْزِمة لتوجيه الاستثمار فى السودان، بما يُرَاعِى عدالة تَوزيع الفرص الاستثمارية.

ب ـ إعادة دراسة أسلوب توزيع الحواكير للزرّاع المُقيمين والمراحيل لرعاة الرحّل فى ضوء اتّفاق مصَالح القبائل، مع الأخذ فى الاعتبار العَادات المُتَوَارثة لأبناء الإقليم قبل الدراسات العَلميّة أو الاقتصَاديّة التى تتعارض مع طرق الدَارْفُوريين فى الزراعة والرعى.

ج ـ سُرعَة تدريب المُوَاطنين على بعض الأنشطة الاقتصاديّة الأخرى بخلاف الزراعة والرعى، وبخاصة التصنيع الزراعى كمَخْرَج لجمود الأنشطة الاقتصاديّة التى أدّت إلى انتشار الفقر والبطالة بدَارْفُور، من خلال تحديث وسائل الإنتاج الزراعى والحيوانى، ومُحَاربة الجفافَ والتصحُر.

د ـ تركيز الاهتمام على إعمار إقليم دَارْفُور والبدء بإعطاء الأولويّة لمَشْرُوعات البنيّة الأساسيّة، واستكمال المشروعَات التنموية التى توقّفت بسبب الأزمة فى الإقليم.

هـ ـ قيام الجمعيّات الأهليّة الإقليميّة بجهود أكبر، سواء فى (التوعيّة، التعليم، الخدمات الصّحية)، فهى قادرةٌ على تحقيق ما تعجز عنه الحكومات، فضلاً عن مُوَاجهتها لزَحف المُنظّمات الأهليّة القادمة من خارجِ القارة، والتَى تعمل بصورةٍ مُوَجّهة أو لتحقيق أهداف خاصة قبل مصلحة أبناء الإقليم.

ضرورة قيام الدول العربيّة والإفريقيّة بدعم المُنَظّمات الإقليميّة ماليًا وفنيًا حتى تستطيع أنْ يكون لها دورٌ فاعلٌ ومستقلٌ تجاه الأزمات التى تتعرّض لها، بدون انتظار الدعم المالى من الدول الغربيّة.

- الانتهاء من ترسيم الحدود بين السودان وجنوب السودان، وحسم تبعية المناطق المُتنازع عليها، من خلال المفاوضات بين الجانبين لحل المشاكل العالقة كافة، بما فى ذلك مشكلة نقل وتصدير النفط الجنوبي، ومشكلة إقليم أبيى الغنى بالنفط.
- الإسراع فى إصلاح النظام السياسى السودانى، ولاسيّما فى ظل الظروف الراهنة التى يمر بها السودان، من خلال مُعالجة المُشكلات التى تُؤَثّر على الاستقرار السياسى لمُواجهة مخططات الانَقسام والتشرذمات الداخلية، وهذا لن يتم إلّا من خلال توافق شعبى ورسمي، ولاسيّما بعد إعلان تحركات المعارضة نيتها الإطاحة بنظام البشير.
- قيام الحكومة السودانية بمُحاولة اختراق المُجتمع الأمريكي، ومخاطبة المؤسسات واللوبيات ومنظمات المجتمع المدنى التى تُؤثر فى اتخاذ قرار السياسة الخارجيّة الأمريكيّة لفهم الواقع السودانى ومشكلاته.
- ضرورة توحيد رؤى الفصائل المُسَلّحة فى إقليم دارفور، ولاسيّما أنّ الحركات وبسبب المطامع الشخصية والمُؤَثّرات الداخلية والخارجيّة انشطرت إلى أكثر من فصيلٍ متعدد، الأمر الذى يقف عائقًا أمام المُبادرات الوطنيّة والإقليميّة من جانبٍ، وإقرار السلم والأمن من جانبٍ آخر.